الوجيز

في شرح عقيدة ابن أبي زيد

إعداد

الأَمين الحاج محمد أَحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

رسالة ابن أبي زيد القيرواني التي سارت بها الركبان، وانتفع بها القاصي والداني من المالكية، وتناولها العديد من فقهاء المالكية بالشروح والتعليقات الحسان، أهملت مقدمتها العقدية، التي أودع فيها ابن أبي زيد العقيدة الصحيحة التي كان عليها مالك وأئمة المذاهب، عقيدة أهل السنة والجماعة، فمنهم من كان يغفلها بالكلية، ومنهم من يمر عليها مرور الكرام، وأعجب من هذين من كان يوجهها على هواه، وهذا من الظلم البين، والغبن الواضح، لهذه العقيدة ولهذا الإمام.

كان أهل المغرب قاطبة على عقيدة أهل السنة والجماعة، لا يبغون عنها حِوَلاً، ولا يريدون بها بدلاً، عقيدة إمامهم في الفقه مالك بن أنس، حتى صرفهم عن ذلك إلى العقيدة الأشعرية ابن تومرت[1] الهالك في ٥٢٤هـ عليه من الله ما يستحقه.

قال اليسع بن حزم: "سمي ابن تومرت المرابطين مجسمين، وما كان أهل المغرب يدينون إلا بتنزيه الله تعالى عما لا يجب وصفه بما يجب له، مع ترك خوضهم عما تقصر العقول عن فهمه ... فكفَّرهم ابن تومرت لجهلهم العَرَض والجوهر، وأن من لم يعرف ذلك لم يعرف المخلوق".[2]

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون المجلد السادس ص ٢٦٧، ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جـ٣/٤٣٨، وسير أعلام النبلاء، ترجمة ابن تومرت، جـ١٩/٥٣٩-٥٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، جـ ١٩/٥٥٠.

من العجيب الغريب أن يُتَّبَعَ أئمةُ المذاهبِ في الفروع ويخالفوا في العقيدة والأصول؛ فالأئمة الأربعة وغيرهم من سلف هذه الأمة كانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة، ومع ذلك ترك أتباعهم اتباعهم فيها وقلدوا ما أحدث بعد من العقيدتين الأشعرية والماتريدية، ومعلوم أنه لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما قال مالك. فإذا أرادت الأمة الصلاح، ونشدت الفلاح والنجاح فعليها أن ترجع إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه الكرام والتابعون لهم بإحسان.

كنت قد قمت بشرح موسع لمقدمة ابن أبي زيد في العقيدة طبع أولاً في سنة ١٤١٢هـ، وطبع ثانية في ١٤٢٨هـ، وقد وجد هذا الشرح قبولاً لدى العديد من أهل السنة والجماعة، ولكن رأيت من الأفضل أن أوجز هذا الشرح حتى يسهل تداوله، ويعم النفع به، كما نفع الله بأصل الرسالة في الفروع.

فكان هذا المقتصر "الوجيز في شرح عقيدة ابن أبي زيد"، والله المسؤول أن ينفع به وأن يردنا وجميع إخواننا المسلمين إليه رداً جميلاً، وصلى الله وسلم على البشير النذير، والسراج المنير، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم إلى يوم البعث والنشور.

تعريف[١] بصاحب هذه العقيدة:

هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، ولد سنة ٣١٠هـ، وتوفي رحمه الله سنة ٣٨٦هـ، من كبار فقهاء الإسلام البارزين، ومن شيوخ أئمة المالكية المقدمين حتى لقب بمالك الصغير. قال عنه القاضي عياض في المدارك: "حاز رئاسة الدنيا والدين". حتى قيل: إنه المجدد للسنة ولمذهب مالك في المغرب بعد انحسار حركة التشيع.

أهم تواليفه:

١. كتاب النوادر والزيادات.

٢. كتاب مختصر المدونة وهما أهم كتبه. قال ابن خلدون[٢] عن كتاب "النوادر والزيادات": ‹‹جمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذاهب وفَرَّعَ الأمهات كلها في هذا الكتاب››.

٣. كتاب الذب عن مذهب مالك.

٤. كتاب الجامع في السنة والآداب والمغازي والتاريخ.

٥. كتاب الرسالة، وهو باكورة إنتاجه ولهذا تعرف بـــ‹‹باكورة السعد››، وهو من أشهر كتبه وأوسعها انتشاراً، وتناولها العلماء بالشروح الموجزة والمطولة، وهي من أنفع متون الفقه المالكي.

---

(١) انظر ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض ج٢/ ١٤١-١٤٥ الطبعة الأولى – دار الكتب.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص: ٤٩٩.

‹‹باب ما تنطق به الألسن، وتعتقده الأفئدة، من واجب أصول الديانات››

بهذه المقدمة الوجيزة ربط وجمع ابن أبي زيد رحمه الله بين أصول الدين وفروعه، بين الفقه الأكبر والأصغر، وبدأ بما يجب على المسلم تعلمه أولاً، وهو ما يجب عليه نحو ربه ورسوله ودينه، ولهذا عندما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن معلماً قال موجهاً له: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم وترد على فقيرهم ..." الحديث.(١)

فبنى أمرهم بفروع الدين، من الصلاة والزكاة ونحوهما على توحيد الله أولاً وإفراده بجميع العبادات.

وبعد ذلك شرع فيما يجب على المكلف تعلمه من فروع الدين؛ لأن تعلم الفروع لا يغني شيئاً عمن يجهل ما أوجبه الله عليه نحو ربه، ورسوله، ودينه، بل ربما يكون مقترفاً لبعض نواقض الإسلام.

ثم شرع بعد ذلك في تفصيل موجز عما يجب ويتعين على المسلم تعلمه واعتقاده، قائلاً:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم: ٧٣٧٢.

‹‹مِن ذلك الإِيمانُ بالقَلبِ، والنُّطقُ باللِّسانِ››

الإيمان لغة: التصديق، وقد يطلق على العمل، كما أن الإسلام وهو الاستسلام في الظاهر قد يطلق ويراد به الاعتقاد.

وشرعاً: تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به عن الله، واتباعه فيما أمر والانتهاء عما عنه نهى وزجر.

قوله: ‹‹الإيمان بالقلب والنطق باللسان››

أشار رحمه الله إلى أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول، وعمل، واعتقاد، قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

وفي ذلك رد على المرجئة الذين أخرجوا الأعمال من الإيمان، فمنهم من زعم أن الإيمان مجرد التلفظ بالشهادتين، ومنهم من قصر الإيمان على تصديق القلب. وسيأتي لذلك مزيد توضيح وبيان فيما بعد إن شاء الله.

قوله: ‹‹بأن الله إله واحد لا إله غيره››

يشير الشيخ بذلك إلى معنى الجزء الأول من الشهادة "أشهد أن لا إله إلا الله" فهي نفي وإثبات، نفي أن يكون هناك إله يستحق العبادة في هذا الكون، وإثبات أنه هو الإله الوحيد الذي يستحق أن يعبد ولا يشرك معه غيره، وأن يشكر ولا يجحد قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

(١) الأنبياء: ٢٢

ومن المؤسف أن كثيراً من المنتسبين للإسلام اليوم لا يعرفون حقيقة كلمة التوحيد حق المعرفة، حيث نجد عدداً كبيراً منهم ينقض هذه الكلمة في اليوم عدة مرات وبنواقض عدة، نحو دعاء غير الله والذبح والنذر لغير الله، وما شابه ذلك.

فتوحيد الله ﷻ يشمل:

١. توحيده في ربوبيته، وهو الإيمان بأنه هو رب العالم ومليكه والمتصرف فيه، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [١] وقال ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٢]، وهذا القسم لم ينكره أحد من الكفار والمشركين إلا فرعون مكابرة كما حكى الله عنه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٣] مشيراً إلى قوله: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[٤].

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [٥].

٢. توحيده في ألوهيته وهو الإيمان والتصديق بأنه هو الإله الوحيد الذي يستحق العبادة وكل ما سواه باطل عبد بغير حق، قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [٦].

---

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) فاطر: ١.

(٣) النمل: ١٤.

(٤) النازعات: ٢٤.

(٥) الزخرف: ٥١.

(٦) المؤمنون: ٩١.

وهذا القسم هو الذي نازع فيه المشركون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [١]. وهو المقصود الأسمى من دعوة جميع الرسل، إذ ما من رسول إلا وقال لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [٢]. وكذلك ينبغي أن يكون الهدف الأساس لأتباعهم.

ومن العجيب الغريب أن يفطن لشيء من ذلك المشركون الأوائل فيدعوه عند الشدة كما حكى الله عنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ ﴾ [٣]، ويغفل عن دعائه المنتسبون إلى الإسلام حتى عند الشدائد كما صور حالهم أبو السمح[٤] رحمه الله:

ولقد أتى في الذكر أن دعاءهم ... في الكرب كان لربنا الرحمن
وإذا دنا فرج وشاموا برقه ... عادوا إلى الكفران والطغيان
لكن قومي في الرخاء وضده ... يدعون غير الله بالإحسان
يدعون أمواتاً غدوا تحت الثرى ... ما إن لهم في ذي الورى من شأن
والله كاشف كل كرب قادر ... وسواه ذو عجز فقير فانٍ[٥]

---

(١) ص: ٥.

(٢) الأعراف: ٥٩.

(٣) العنكبوت: ٦٥.

(٤) هو محمد بن عبد الظاهر بن محمد نور الدين الفقيه إمام وخطيب المسجد الحرام المتوفى سنة ١٣٧٠هـ.

(٥) انظر ديوانه: "حياة القلوب بدعاء علام الغيوب"، ص: ٩٧.

روى البيهقي رحمه الله في سننه أن الرسول ﷺ سأل الحصين الخزاعي قبل إسلامه قال: "يا أبا عمران، كم إلهاً تعبد؟ قال: أعبد سبعة .. ستة في الأرض، وواحد في السماء.

قال: فإذا هلك المال، من تدعو؟ قال: أدعو الذي في السماء.

قال: فإذا انقطع القطر من تدعو؟ قال: أدعو الذي في السماء.

قال: فإذا جاع العيال، من تدعو؟ قال: أدعو الذي في السماء.

قال: فيستجيب لك وحده، أم يستجيبون لك كلهم؟

قال: بل يستجيب وحده.

فقال ﷺ: "يستجيب لك وحده، وينعم عليك وحده، وتشركهم في الشكر، أم أنك تخاف أن يغلبوه عليك؟

قال الحصين: لا، ما يقدرون عليه.

فقال: يا حصين! أسلم، أعلمك كلمات ينفعك الله بهن".[1]

٣. توحيده في الأسماء والصفات، ويعني الإيمان والتصديق بجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلا التي سمى الله بها نفسه، أوسماه بها رسوله ﷺ، أعلم الخلق به، من غير تأويل ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل.

وهذا التقسيم توصل إليه العلماء بالاستقراء.

(١) السنن الكبرى للبيهقي.

قوله: ‹‹ولا شبيه له ولا نظير››.

ينفي الشيخ رحمه الله أن يكون لربنا سبحانه وتعالى شبيه ولا مثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١) وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (٢) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله: ‹‹ولا ولد له، ولا والد ولا صاحبة له››.

نزه الشيخ الرب جل وعلا عن الوالد، والولد، والصاحبة، قال تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾(٣)، وقال ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾(٤). تكذيباً لمن زعم أن الملائكة بنات الله وأن عزيراً وعيسى أبناء الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾(٥).

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) الإخلاص: ١ – ٤.

(٣) الجن: ٣ .

(٤) الإسراء: ١١١.

(٥) التوبة: ٣٠.

خرج البخاري في صحيحه[١] بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. أما تكذيبه إياي أن يقول: اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد".

روى الترمذي في سبب نزول سورة الإخلاص عن أُبَيّ بن كعب ﷺ: "أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾[٢]. لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وأن الله ﷻ لا يموت ولا يورث". ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ قال: "لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء".[٣]

رحم الله الإمام ابن القيم حين قال[٤]: "أمة الضلال وعباد الصليب الذين سبوا الله الخالق ﷻ سباً لم يسبه إياه أحد من العالمين".

ولله در ابن الباقلاني عندما سأل أحد الرهبان متهكماً: كيف حال الزوجة والأولاد؟ فقال له الراهب: مه، أما علمت أن الراهب منـــزه عن الزوجة والولد؟! فقال له ابن الباقلاني: سبحان الله، تنـــزهون الراهب ولا تنـــزهون الرب؟!

---

(١) كتاب التفسير باب قوله تعالى "الله الصمد" رقم: ٤٩٧٥.

(٢) الإخلاص: ١ – ٣.

(٣) صحيح سنن الترمذي للألباني، رقم: ٣٣٦٤، وقال: حسن دون قوله: "والصمد الذي ...".

(٤) هداية الحيارى، ص: ٨.

قوله: ‹‹ولا شَرِيك››.

تنـــزه الله عن الشريك فهو أغنى الشركاء فمن أشرك معه غيره تركه وشركه؛ ولهذا قال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، ومن ثم كان الشرك هو الذنب الذي لا يغتفر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2].

قوله: ‹‹ليسَ لأوليتِه ابتداءٌ ولا لآخريّتِه انتهاءٌ››.

يشير الشيخ رحمه الله إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[3].

خرج مسلم في صحيحه[4] بسنده عن سهيل قال: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الْفَقْرِ". وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ".

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) الحديد: ٣.

(٤) كتاب الذكر والدعاء صحيح مسلم بشرح النووي، جـــ١٧/٣٥-٣٦.

وما ذكره بعض المؤولة: "عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم"[١] قوله مردود مخالف لما أولها به صاحب الشرع ﷺ.

قال القحطاني في نونيته:

لا تفتكر في ذات ربك واعتبر فيما به يتصرف الملـــــوان

قوله: ‹‹لا يبلغُ كنه صفتِه الواصفون، ولا يحيط بـــأمره المتفكـــرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته››.

حقيقة وكيفية أسماء الله وصفاته لا يدرك كنهها عقل بشري ولهذا قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[٢]، وأمرنا أن نؤمن ونصدق بمعاني هذه الأسماء والصفات وندع علم كيفيتها لربنا سبحانه وتعالى، وهذا من فضل الله علينا إذ لم يكلفنا ما لا طاقة لنا به.

عندما سأل أحد تلاميذ عمرو بن عبيد المعتزلي مالكاً عن الاستواء قال له: "الاستواء غير مجهول ـأي معناهـ والكيف غير معقول ـأي لا تستطيع العقول إدراكهـ والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً" وأمر بإخراجه من مجلسه.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٦/١٧.

(٢) طه: ١١٠.

وقوله: ‹‹ولا يحيط بأمره المتفكرون››.

مراد الشيخ رحمه الله أن لا نتفكر في ذات الله وصفاته بل علينا أن نتدبر ونتفكر في مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

ولهذا أثر عن ابن عباس ﷺ: "تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره، وإن من السماء السابعة إلى كرسيه ألف نور، وهو فوق ذلك".[2]

قوله: ‹‹ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم››.

هذا هو عجز آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله، ولها شأن عظيم في الحفظ من الشرور والشياطين.

صح عن أُبَيّ بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ سأله: "أي آية في كتاب الله أعظم؟" قال: قلت: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً، ثم قال أُبَيّ: آية الكرسي. قال: ليهنك العلم أبا المنذر".[3]

---

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) مسند الفردوس، رقم: ٢٣١٨. قال محققه: كنز العمال ٥٧٠٨، وعزاه لأبي الشيخ في "العظمة"، وأبي نُعيم في "الحلية".

(٣) صحيح مسلم، ج١/٣٢٢.

وصح عن أبي هريرة ﷺ[١] عندما كان يحفظ زكاة الفطر فتردد عليه شيطان، يأخذ منها فأمسك به مراراً وفي آخرها قال له: "دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[٢] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال له رسول الله ﷺ: "أما إنه صدقك وهو كذوب".

الكرسي: صح[٣] عن ابن عباس ﷺ أنه موضع قدمي الرحمن، والعرش لا يقدره إلا الله تعالى". وهذا له حكم الرفع لأن ابن عباس لا يقول ذلك برأيه.

لا يؤوده: أي لا يعجزه ولا يثقله، ولا يشق عليه ذلك سبحانه.

لا يحيطون: أي لا يطلع الخلق، جميع الخلق، من الملائكة، والجن، والإنس على شيء من علمه إلا بما شاء، وقيل: لا يطلعون على شيء من علم ذاته إلا ما أطلعهم عليه. ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٤].

فالغيب المطلق لا يعلمه إلا الله، وهو مما استأثر به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[٥]

---

(١) البخاري.

(٢) البقرة: ٢٥٥

(٣) الحاكم جـ٢/٢٨٢، موقوفاً على ابن عباس، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي – انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر، جـ٢/١٦٣.

(٤) النمل: ٦٥.

(٥) لقمان: ٣٤.

ولكن الله يطلع رسله بما شاء: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1]، ولهذا قالت الملائكة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[2]، وقال على لسان رسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[3].

فإذا كان رسل الله من الملائكة، والإنس، لا يعلمون الغيب المطلق فهل يعلمه أحد غيرهم؟!

فيعقوب عليه السلام ما كان يدري عن حياة يوسف عليه السلام ولا عن موته ومكانه شيئاً إلى أن جاءه البشير. وكذلك نبينا ﷺ ما كان يعلم براءة عائشة حتى برأها الله من فوق سبع سموات، وما كان يدري سلامة الثلاثة الذين خلفوا من النفاق حتى نزلت توبتهم وبراءتهم من السماء.

أما إذا وقع الأمر وحدث قد يعلمه البعض فالسارق وقرينه يعلمان مكان المسروق مثلاً، ويمكن لقرين هذا السارق أن يعلم بعض الكهنة والدجالين بذلك فيخبر صاحبه بذلك، فتنة وامتحاناً لهما ولغيرهما.

ثم ختمت الآية بصفتين من صفات الرب سبحانه؛ العلو والعظمة (وهو العلي العظيم).

---

(١) الجن: ٢٦ – ٢٧.

(٢) البقرة: ٣٢.

(٣) الأعراف: ١٨٨.

مذهب السلف الأسلم الأحكم أن نمر كل الآيات والأحاديث في أسماء الرب وصفاته كما جاءت ولا يخاض فيها بالآراء والتخرصات.

قال القحطاني في نونيته[١]:

أمرر أحاديث الصفات كما أتت من غير تأويل ولا هذيان

هو مذهب الزهري ووافق مالكٌ وكلاهما في شرعنا علمان

قوله: ‹‹العالم، الخبير، المدبر، القدير، السميع، البصير، العلي، الكبير››.

الله سبحانه وتعالى موصوف بكل صفات الكمال ومنزه عن كل نقص. أسماؤه وصفاته تليق بجلاله وعظمته وليس بينها وبين أسماء وصفات المخلوقين إلا التشابه في الألفاظ فكما أننا نثبت له ذاتاً تختلف عن ذواتنا يلزمنا أن نثبت له صفات تختلف عن صفاتنا، تعالى الله عن الشبيه والمثيل.

فهو عالم، وخبير، ومدبر، وقدير، وسميع، وبصير، وعليّ وكبير، بعلم، وخبرة، وتدبير، وتقدير، وسمع، وبصر، وعلو، وكبر، يناسب عظمته وجلاله.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[٢] ففي هذه الآية القصيرة الجامعة المانعة نزه الله نفسه عن الشبيه والمثيل، وأثبت لذاته صفتي السمع والبصر.

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، تصحيح وتحقيق محمد بن أحمد سيد أحمد، ص: ٤٦.

(٢) الشورى: ١١.

قال القحطاني رحمه الله في نونيته[١]:

حاشا الإله بأن تكيف ذاته فالكيف والتمثيل منتفيان
والأصل أن الله ليس كمثله شيء تعالى الرب ذو الإحسان
لسنا نشبه ربنا بعباده رب وعبد كيف يشتبهان؟!

وقوله: ‹‹وأنه فوق عرشه بذاته››.

يشير الشيخ ـرحمه اللهـ إلى صفة الاستواء والفوقية، والعلو. هذه الصفات أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ وأثبتها له سلف هذه الأمة وخلفها، ولم يجادل في ذلك إلا أهل الأهواء من الجهمية وأولها من قلدهم تأويلاً ما أنزل الله به من سلطان، ولم يؤثر عن علم من الأعلام.

لقد سمى الله ذاته بالعلي والأعلى فقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [٢] ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [٣]، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [٤].

ووصف نفسه بالفوقية فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [٥]

(١) ص: ٤٧-٤٨.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) سبأ: ٢٣.
(٤) الأعلى: ١.
(٥) الملك: ١٦ – ١٧.

وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[١]. وقال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ [٢] وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾[٣].

وفي حديث الجارية الذي خرجه مسلم في صحيحه حين سألها رسول الله ﷺ: " ... أين الله؟ قالت: في السماء". فأقرها على ذلك وأثنى عليها وقال لصاحبها: "أعتقها فإنها مؤمنة". ووصف نفسه بأنه استوى على العرش في سبعة مواضع من القرآن الكريم هي:

١. ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٤].

٢. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٥]

٣. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾[٦]

٤. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٧].

٥. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٨]

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) الوفاة ترد بمعنى النوم، قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها"، وقال ﷺ: "النوم أخو الموت"، هذا بجانب أن الواو تفيد العطف لا التراخي.

(٣) آل عمران: ٥٥.

(٤) طه: ٥.

(٥) الحديد: ٤.

(٦) الفرقان: ٥٩.

(٧) الأعراف: ٥٤.

(٨) السجدة: ٤

٦. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [١]

٧. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [٢]

الآثار في إثبات صفة العلو، والفوقية، والاستواء:

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية" العديد من الآثار عن أئمة السلف المقتدى بهم من الأئمة الأربعة وأتباعهم وغيرهم، نذكر طرفاً منها.

ذكر الذهبي في كتابه "العلو" بسند جيد كما قال محقق "اجتماع الجيوش الإسلامية"[٣] وقال: رواها صاحب "الفاروق"[٤] عن أبي حنيفة رحمه الله وقد سئل عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء، أم في الأرض، قال: فقد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ وعرشه فوق سبع سموات.

قال: فإنه يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ولكنه لا يدري العرش في الأرض أو في السماء، قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر".

---

(١) يونس: ٣

(٢) الرعد: ٢

(٣) ص: ٧٩، هامش (٤).

(٤) شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على ما قاله أبو حنيفة: "ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة ــرحمه اللهــ عند أصحابه أنه كَفَّرَ الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء ولا في الأرض".[١]

روى ابن عبد البر في التمهيد بسنده إلى عبد الله بن نافع قال: قال مالك ابن أنس: "الله في السماء وعلمه في كل مكان".[٢]

قال ابن نافع: وقيل لمالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٣]، كيف استوى؟ فقال مالك رحمه الله تعالى: "الاستواء معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء".

قال ابن القيم: وكذلك أئمة أصحاب مالك من بعده.

وروى يحيى بن إبراهيم الطليطلي في كتابه "سير الفقهاء" بسنده إلى إبراهيم النخعي: "... وكانوا يكرهون قول الرجل: والله حيث كان، وأن الله بكل مكان".

قال أصبغ: وهو مستو على عرشه، وبكل مكان علمه، وإحاطته، قال الطليطلي: "وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقههم".[٤]

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: ٧٩.

(٢) قال محقق "اجتماع الجيوش الإسلامية": إسناده صحيح، ص: ٨٠، هامش (١).

(٣) طه: ٥.

(٤) قال محقق "اجتماع الجيوش" ص ٨٦، هامش (٢): إسناد صحيح.

وقال أبو بكر بن محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد وكان من المشهورين بالفقه والسنة: "وأما قوله: إنه فوق عرشه المجيد بذاته، فإن معنى فوق وعلا عند جميع العرب واحد، وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تصديق ذلك". إلى أن قال: "وقد تأتي "في" في لغة العرب بمعنى فوق وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾[1] يريد فوقها وعليها، وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾[2].

قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها، وهو قول مالك مما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين، مما فهموه عن الصحابة مما فهموه عن النبي ﷺ: أن الله في السماء بمعنى فوقها وعليها". ولذلك قال الشيخ أبو محمد: "إنه فوق عرشه المجيد بذاته، ثم بين أن علوه على عرشه إنما هو بذاته لأنه بائن عن جميع خلقه بلا كيف".

وقال الشافعي ــرحمه الله تعالىــ: "أقول في السنة التي أنا عليها، ورأيتُ أصحابَنا عليها، أهلَ الحديثِ الذين رأيتُهم، وأخذتُ عنهم مثل سفيان, ومالك, وغيرهما، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله ينـــزل إلى سماء الدنيا كيف شاء".[3]

قال الميموني: "سألت أحمد بن حنبل عمن يقول: إن الله تعالى ليس على العرش، فقال: كلامهم كله يدور على الكفر".[4]

---

(١) الملك: ١٥

(٢) الملك: ١٧.

(٣) قال محقق اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: ٩٧، هامش (١): إسناده صحيح.

(٤) قال المحقق: صحيح الإسناد، هامش (٢) ص: ١١٣.

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة ــرحمه اللهــ: "من لم يقر بأن الله على عرشه استوى، فوق سبع سمواته، وأنه بائن عن خلقه، فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وألقي على مزبلة لئلاً يتأذى بريحه أهل القبلة".(١)

وقال ابن قدامة صاحب «المغني»: "أما بعد: فإن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار في ذلك على وجه حصل به اليقين وجمع الله عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزاً في طبائع الخلق أجمعين، فتراهم عند نزول الكرب يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون عندها للدعاء أيديهم، وينتظرون مجيء الفرج من ربهم سبحانه وينطقون بذلك بألسنتهم، لا ينكر ذلك إلا مبتدع غالٍ في بدعته، أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته".

وقال القحطاني في نونيته(٢):

سبحان ملكاً على العرش استوى وحوى جميع الملك والسلطان

واستواء الرب سبحانه على العرش فسره أهل السنة بعدة تفسيرات مدلولها واحد وهي: علا، وارتفع، وصعد، واستقر.

قال ابن القيم في نونيته: "الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية":

فلهم عبارات عليها أربع قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذا ار تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع وأبو عبيدة صاحب الشيباني

---

(١) قال المحقق: رواه الحاكم في علوم الحديث، ص: ٦٧.

(٢) ص: ١١.

يختار هذا القول في تفسيره أدرى من الجهم بالقرآن

أما ما ذهب إليه الأشاعرة والماتوريدية من تأويلهم استوى بـــ(استولى)؛ فهو قول باطل، مردود لما في (استولى) من المغالبة وحاشا الرب أن يغالبه أحد من خلقه.

قال إسماعيل التيمي: "قال علماء السنة: إن الله على عرشه بائن من خلقه، وقالت المعتزلة: هو بذاته في كل مكان. وقالت الأشعرية: الاستواء عائد إلى العرش، ولو كان كما قالوا: لكانت القراءة برفع العرش، فلما كانت بخفض العرش دل على أنه عائد إلى الله ﷻ. وقال بعضهم: استوى بمعنى استولى.

قال الشاعر:-

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والاستيلاء لا يوصف إلا من قدر على الشيء بعد العجز عنه، والله تعالى لم يزل قادراً على الأشياء ومستولياً عليها".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــرحمه اللهــ راداً لهذا الاستدلال الباطل: "لم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه، وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده؟ وقد طعن فيه أئمة الدين".[1]

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج٥/١٤٦.

ويدل على إثبات صفة الذات لله ما خرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله ...".

وما خرج البخاري[1]: باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى، عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله عشرة، فيهم خُبيب الأنصاري، ثم ذكر قول خبيب وقد قدم للقتل:

ولستُ أبالي حين أُقتَـلُ مسـلماً على أي شق كان في الله مصـرعي
وذلـك في ذات الله وإن يشـأ يبـارك في أوصـال شـلوٍ ممـزع

(١) البخاري، رقم: (٣٣٥٨)، ومسلم رقم: (٧٤٠٢).

قوله: ‹‹وَهُوَ بِكُلّ مَكانٍ بعلمه، خَلقَ الإنسانَ ويعلمُ ما توَسْوِسُ بـــه نفسُهُ، وهو أقرَبُ إليه من حبل الوريد وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . . .››

يشير الشيخ ــرحمه اللهــ على أن الله على الرغم من استوائه على عرشه وبينونته من خلقه إلا أنه معهم يعلمه، وإرادته، وسمعه، وبصره، وإحاطته، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) وقال عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)،يجيب دعوة الداعي إذا دعاه, ويكشف ضر من استغاث به وناداه، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣). وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤)

(١) البقرة: ١٨٦.
(٢) ق: ١٦.
(٣) غافر: ١٩.
(٤) الأنعام: ٦٠.

ومعية الله خاصة وعامة:

العامة مع جميع الخلق والخاصة مع رسله وأنبيائه وأوليائه. قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون عليه السلام عندما أرسلهما إلى الطاغية فرعون وقالا: ﴿ **رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾** ﴾[١] قال عز وجل: ﴿ **قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾** ﴾[٢]. بهذا يوفق ويجمع بين استوائه على عرشه وقربه من خلقه. فالقرآن يُفَسِّر بعضه بعضاً.

قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا. وتلا قوله تعالى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾[٣]. قال: يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها؟! هل قرأت عليه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾[٤].

وقيل لعلي بن المديني: ما قول الجماعة في الاعتقاد؟ قال: يثبتون الكلام والرؤية، ويقولون: إن الله تعالى على العرش استوى. فقيل له: ما تقول في قوله تعالى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾ فقال: اقرأوا أول الآية، يعني بالعلم".

---

(١) طه: ٤٥.

(٢) طه: ٤٦.

(٣) المجادلة: ٧.

(٤) المجادلة: ٧.

لله در ذلكم الشيخ الهمداني الذي حير الإمام الجويني المتكلم الأشعري، وقد أطال في الانتصار لعقيدته الأشعرية أن الله ﷻ في كل مكان وليس مستوياً على العرش، حين قال له: لماذا إذا دعا الإنسان ربه، شخص ببصره إلى أعلى ورفع يديه إلى فوق؟!فما كان منه إلا أن لطم خده وقال: حيَّرني الشيخ الهمداني!! وهذا دليل فطري مغروز في النفوس، ولم يكابر في ذلك إلا الجهمي بشر المريسي حيث كان يقول: سبحان ربي الأسفل، كبرت كلمة خرجت من فيه.

قوله: ‹‹على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى، والصفات العلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة››.

في هذا الكلام مزيد تقرير لما ذكره الشيخ من قبل من إثبات صفة الاستواء، وإحاطته بملكه، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، وأن هذه الأسماء والصفات أزلية لا تنفصل عنه؛ فهي ليست مخلوقة ولا محدثة.

قوله: ‹‹كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه››

من صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه صفة الكلام فالذي لا يتكلم ناقص ويعرف بالأخرس.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1].

(١) النساء: ١٦٤.

وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[١].

وقال: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾[٢].

وقال: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[٣]

وكلام الله بالصوت والحرف يناسب جلاله وعظمته، وليس كلاماً نفسياً كما يزعم الزاعمون ولا معنوياً.

الأدلة على إثبات الصوت لله ﷻ كثيرة منها:

١. ما خرجه البخاري بسنده في صحيحه[٤] عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: "يقول الله: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك! فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً من النار".

٢. وخرج البخاري كذلك في صحيحه[٥] تعليقاً بصيغة الجزم: وقال مسروق عن ابن مسعود ﷺ: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فُزِّع عن قلوبهم، وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا: ماذا قال ربكم؟! قالوا: الحق".

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) التوبة: ٦.

(٤) كتاب التوحيد، رقم: ٧٤٨٣.

(٥) في كتاب التوحيد، الفتح: ج١٣/٤٥٢-٤٥٣.

٣. وقال جابر عن عبد الله بن أنيس، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك أنا الديان".(١)

قال الحافظ ابن حجر: "وإذا ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة وجب الإيمان به".(٢)

لقد بالغ المعتزلة في إنكار صفة الكلام واجتهدوا في تأويلها تأويلاً باطلاً مما أدى بهم إلى أن يسعوا لتحريف بعض الآي. وطلب أحد المعتزلة من إمام القراء أبي عمرو بن العلاء أن ينصب اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿ **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا** ﴾(٣) حتى يكون المتكلم هو موسى.

فقال له: "هب أني فعلت فماذا تصنع بقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ** ﴾(٤)، فبهت المعتزلي.

---

(١) البخاري تعليقاً، كتاب التوحيد، المصدر السابق.

(٢) الفتح ج١٣/٤٥٨.

(٣) النساء: ١٦٤.

(٤) الأعراف: ١٤٣.

قوله: ‹‹وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلـــوق فينفد››.

قرر الشيخ في هذه الجملة ما عليه أهل السنة قاطبة أن القرآن الكريم هو كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. والمراد بـــ‹‹إليه يعود›› أنه سيرفع في آخر الزمان من الصحف والصدور. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[1].

ومما يدل على أن كلام الله صفة من صفاته ومنه القرآن كذلك وأنه ليس بمخلوق تعوذه ﷺ بكلمات الله نحو: "أعوذ بكلمات الله التامة"، و"أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق" إذ لا يمكن أن يستعاذ بشيء من مخلوقات الله ﷻ.

ما قاله الشيخ ابن أبي زيد قد قاله مالك من قبل.

قال ابن أبي زيد في كتاب "الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ"[2]: "قال مالك: القرآن كلام الله، وكلامه لا يبيد ولا ينفد، وليس بمخلوق".

قال البخاري في كتاب "خلق أفعال العباد": "وقال ابن المديني: القرآن كلام الله، غير مخلوق، من قال إنه مخلوق، فهو كافر لا يصلى خلفه".

---

(١) التوبة: ٦.

(٢) ص: ١٩٣.

قال القحطاني المالكي في نونيته[1]:

إني أقـــول فأنصـــتوا لمقـــالتي ... يا معشـــر الخلطـــاء والإخـــوان
إن الذي هو في المصاحف مثبـــت ... بأنامـــل الأشـــياخ والشـــبان
هـــو قـــول ربي آيـــه وحروفـــه ... ومـــدادُنا والـــرَّقُّ مخلوقـــان
من قال في القرآن ضـــد مقـــالتي ... فالعنـــه كـــلّ إقامـــة وآذان
هو في المصاحف والصدور حقيقـــة ... أيقـــن بـــذلك أيّمـــا إيقـــان
وكذا الحروف المســـتقر حســـابها ... عشـــرون حرفـــاً بعـــدهن ثمـــاني
هي من كـــلام الله جـــل جلالـــه ... حقاً وهـــنّ أصـــول كـــل بيـــان
حـــاءٌ ومـــيمٌ قـــول ربي وحـــده ... مـــن غـــير أنصـــار ولا أعـــوان
من قال في القرآن مـــا قـــد قالـــه ... عبد الجليـــل وشـــيعة اللحيـــان
فقد افترى كذباً وإثمـــاً واقتـــدى ... بكلاب كلـــب معـــرة النعمـــان

وقال ابن القيم في نونيته:

وكذلك القرآن عين كلامه الـــــ ... مســـموع منـــه حقيقـــة وبيـــان
هـــو قـــول ربي كلـــه لا بعضـــه ... لفظاً ومعـــنى مـــا همـــا خلقـــان
تنزيـــل رب العـــالمين وقولـــه ... اللفـــظ والمعـــنى بـــلا روغـــان
لكن أصـــوات العبـــاد وفعلـــهم ... كمـــدادهم والـــرق مخلوقـــان
فالصوت للقارئ ولكـــن الكـــلا ... م كلام رب العـــرش ذي الإحســـان

(١) ص: ٤٨-٤٩.

كان الناس على هذه العقيدة في القرون الثلاثة الفاضلة، ثم نبتت نابتة _المعتزلة_ وظهرت وتمكنت في عهد المأمون العباسي حيث أزاغوه ومن بعده عن الجادة حيناً من الدهر إلى أن رد الله الأمة في عهد المتوكل إلى ما كان عليه السلف الصالح.

وقد تولى كبر هذه البدعة بعض علماء السوء يتقدمهم الجهمي بشر المريسي وابن أبي دؤاد، وامتحنوا أئمة أهل السنة امتحاناً عصيباً فكان يؤتى بأحدهم من بغداد وغيرها إن لم يقر بهذه العقيدة الباطلة، فمنهم من قتل ومنهم من سجن وضرب وعذب. وقد ثَبَّتَ الله بعضهم فوقفوا مواقف الأنبياء، ونصروا عقيدة رب الأرض والسماء، منهم[1] الأئمة أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر الخزاعي، والبويطي صاحب الشافعي، وغيرهم كثير، تقبل الله جهادهم ونصرهم ونصيحتهم لكتاب الله ﷻ.

كان بشر المريسي الجهمي وغيره من هؤلاء المعتزلة أظهروا شيئاً من ذلك في عهد أبي جعفر والرشيد _رحمهما الله_ ولكنهم خافوا من سطوتهما فأخفوا ذلك، وعندما وجدوا فرصتهم في عهد المأمون صرحوا بما كانوا يخفون ويلمحون من قبل، وهكذا شان أهل البدع في كل وقت وحين يصطادون في الماء العكر، فينبغي لولاة الأمر من العلماء والحكام أن يراقبوا حركاتهم وسكناتهم وأن لا يغفلوا عنهم فهذا من أوجب واجبات ولاة الأمر حماية للدين والعقيدة.

---

(١) يمكن الرجوع إلى تراجم هؤلاء الأئمة في سير أعلام النبلاء للذهبي، و"البداية والنهاية" لابن كثير، والإبانة لابن بطة العكبري الحنبلي المتوفى ٣٨٧هـ، مجلد ٤ ج١٤/ ٣٨٣-٤٢٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كان الجهمية[١] يدورون على ذلك، و لم يكونوا يصرحون به لوفور السلف والأئمة، وكثرة أهل السنة، فلما بعد العهد، وانقرض الأئمة، صرح أتباعهم بما كان أولئك يشيرون إليه ويدورون حوله.

وهكذا ظهرت البدع كلما طال الأمد، وبَعُدَ العهدُ اشتد أمرها وتغلظت ... وأول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة القدر, والإرجاء, ثم بدعة التشيع، إلى أن انتهى الأمر إلى الاتحاد والحلول وأمثالهما".[٢]

ولهذا شرع الله لنا المدافعة عن ديننا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٤].

ما أكثر الحركات الهدامة في هذا العصر، وما أكثر الأئمةَ المضلين المفسدين!!

ومن العجيب جَلَدُ ودفاعُ الكفار والمشركين والمبتدعين عن ضلالهم، وضعف وتخاذل أهل الحق عن الدفاع عن حقهم وإخوانهم.

---

(١) الجهمية يطلق على المعتزلة وعلى غيرهم.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، ١٣٦-١٣٧.

(٣) البقرة: ٢٥١.

(٤) الحج: ٤٠.

روى ابن أبي حاتم كما قال ابن القيم[١] قال: "جاء بشر بن الوليد إلى أبي يوسف؛ فقال له: تنهاني عن الكلام وبشر المريسي، وعليّ الأحول، وفلان يتكلمون؟ فقال: وما يقولون؟ قال: يقولون: إن اللّه في كل مكان. فبعث أبو يوسف وقال: عليَّ بهم، فانتهوا إليهم، وقد قام بشر فجيء بعليٍّ الأحول والشيخ الآخر، فنظر أبو يوسف إلى الشيخ وقال: لو أن فيك موضع أدب لأوجعتك، وأمر به إلى الحبس، وضرب عليّ الأحول وطيف به، وقد استتاب أبو يوسف بشر المريسي لما أنكر أن الله فوق عرشه، وهي قصة مشهورة ذكرها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره، وأصحاب أبي حنيفة المتقدمون على هذا".

قول الشيخ: ‹‹ والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره. وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده ومصدرها من قضائه، علم كل شيء قبل كونه، فجرى على قدره. لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾››.

يشير الشيخ بذلك إلى الركن السادس من أركان الإيمان الذي لا يتم إيمان العبد إلا به، وهو الإيمان بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره، وأن الله ﷻ علم كل شيء قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة، كما صح بذلك الخبر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء عنده بمقدار.

(١) في "اجتماع الجيوش الإسلامية" ص: ١٣٩.

والأدلة على ذلك من الكتاب، والسنة، والآثار لا تحصى كثرة؛ ولكن نشير إلى طرف منها:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[١].
- وجا في حديث جبريل الطويل عندما قال للرسول ﷺ: "فأخبرني عن الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره". قال: صدقت" الحديث.[٢]
- قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني! إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب! قال: رب! ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة". يا بني! إني سمعت رسول الله يقول: "من مات على غير هذا فليس مني".[٣]
- وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "احتج آدمُ وموسى؛ فقال موسى: يا آدمُ! أنت أبونا، خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، تلومني على أمر قدره عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة. فحج آدمُ موسى".[٤]

---

(١) القمر: ٤٩.

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: ٣٦٩٥.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٧٠٠ للألباني.

(٤) صحيح ابن ماجة، رقم: ٨٠٠، وصحيح أبي داود رقم: ٤٧٠١ للألباني.

• وعن ابن عمر ﷺ قال: سأل رجل من مزينة أو جهينة ـرسـول اللهـ فقال: يا رسول الله! فيم نعمل؟ أفي شيء قد خلا ومضى أوفي شـيء يستأنف الآن؟ قال: "في شيء قد خلا ومضى". فقـال الرجـل ـأوبعـض القومـ: ففيم العمل؟ قال: "إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة، وإن أهل النار ييسرون لعمل أهل النار".(١)

• وعن ابن عمر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "القدرية مجوس هذه الأمة".(٢)

• وعن نافع، قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشـام يكاتبـه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إليّ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه سيكون في أمتي أقـوام يكذبون بالقدر".(٣)

• وسأل رجل عمر بن عبد العزيز ـرحمه اللهـ عن القدر فقال لـه: فعلى الخبير ـبإذن اللهـ وقعت: ما أعلم ما أحدث الناس مـن محدثـة، ولا ابتدعوا من بدعة، هي أبين أثراً، ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كـان ذكره في الجاهلية الجهلاء، يتكلمون به في كلامهم، وفي شعرهم، يعزون بـه أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة.

---

(١) صحيح أبي داود للألباني، رقم: ٤٦٩٦.

(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر، لكن الألباني حسن رفعـه في صـحيح أبي داود، رقـم: (٤٦٩١)، شبه القدرية بالمجوس لزعمهم أن الإنسان خالق لفعله لأن المجوس تزعم أن للعالم خـالقين، أحدهما يخلق الخير، وهو النور، والآخر يخلق الشر، وهو الظلمة.

(٣) حسن، صحيح سنن ابن ماجة، رقم: (٤٠٦١)، وصـحيح سـنن أبي داود، رقـم: (٤٦١٣) كلاهما للألباني.

ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث، ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون، فتكلموا به في حياته وبعد وفاته، يقيناً وتسليماً لربهم، وتضعيفاً لأنفسهم، أن يكون شيءلم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه، ولم يمض فيه قدره، وإنه مع ذلك لفي محكم كتابه، منه اقتبسوه، ومنه تعلموه، ولئن قلتم: لِمَ أنزل الله آية كذا؟ لِمَ قال كذا؟ لقد قرأوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كله، بكتاب وقدر، وكتبت الشقاوة، وما يقدر يكن، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا".[1]

الإيمان بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره يتلخص في الآتي:

١. الإيمان والتصديق بأن الله علم ما كان وما يكون، وما لم يكن أن لو شاء كيف كان يكون قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء".[2]

المراد تحديد وقت كتابة المقادير، لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له كما قال العلماء رحمهم الله.

٢. الإيمان والتصديق أنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء عنده بمقدار.

---

(١) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (٤٦١٢)، وقال عنه: صحيح مقطوع.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام، رقم: (٢٦٥٣).

٣. أنّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

٤. أننا وأعمالنا مخلوقون لله مربوبون له ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

٥. أن إرادة الإنسان هي جزء لا يتجزأ من إرادة الله ﷻ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[3].

٦. أفعالنا الاختيارية محاسبون عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[4]

٧. لا حجة لأحد من الخلق في الاحتجاج بالقدر في تبرير ما يقترفه من المعاصي والآثام: "إنما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُم، ثُمَّ أُوَفِّيكُم إِيَّاهَا فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فليحمَد اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفسَهُ".[5]

هذا ما عليه أهل السنة سلفاً وخلفاً وما عداه فباطل وضلال.

---

(١) التوبة: ٥١.

(٢) الصافات: ٩٦.

(٣) التكوير: ٢٩.

(٤) الزلزلة: ٧ — ٨.

(٥) صحيح مسلم عن أبي ذر فيما يخبر الرسول ﷺ عن ربه. كتاب البر والصلة والآداب، رقم: (٤٦٧٤).

قوله: ‹‹يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق منه علمه، وقدره من شقي أو سعيد، تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالقٌ لشيء إلا هو, رب العباد، ورب أعمالهم، والمقدِّر لحركاتهم وآجالهم››.

يشير ـرحمه اللهـ إلى ما جاء به كتاب ربنا، ونطقت به سنة نبينا ﷺ من:

١. أن الهداية والضلال بيد الله، يهدى من يشاء بفضله ولطفه ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، ولا يظلم ربك أحداً.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1] وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2]، وقال: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[3].

(١) الأنعام: ١٠٧.

(٢) الأنعام: ١٢٥.

(٣) الأعراف: ١٨٦.

هداية الرسل وأتباعهم هداية توجيه وإرشاد: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].

٢. أن من أراد الله له الهداية لعلمه السابق يسره لسبل الهداية, ولطف به، ومن أراد له الضلال لعلمه السابق بحاله يسره لسبل الغواية والضلال، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[3].

عن علي ﷺ قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد[4]، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله. ومعه مخصرة[5] فنكّس[6]، فجعل ينكت[7] بمخصرته، ثم قال: "ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة".

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) يونس: ٩٩.

(٣) الليل: ٥-١٠.

(٤) هو مدفن أهل المدينة ويعرف ببقيع عثمان لأن عثمان بن مظعون أول من دفن فيه من المهاجرين، والغرقد نوع شجر كان به.

(٥) عصا خفيفة.

(٦) خفض رأسه وطأطأه.

(٧) يخط به خطاً يسيراً.

قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث[١] على كتابنا وندع العمل؟ فقال: "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة"، فقال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾[٢].

٣. السعيد من كتبه الله عنده سعيداً, والشقي من كتبه الله عنده شقياً, رفعت الأقلام وجفت الصحف.

عن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً".[٣]

٤. لا يكون في ملك الله ﷻ إلا ما يريد قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[٤]. وجاء في الأثر: "يا ابن آدم أنت تريد، وأنا أريد، ولا يكون إلا ما أريد". فحاشا أن يكون فرعون، وهامان، وأبو جهل، وأبو لهب، وغيرهم من أئمة الكفر والضلال أرادوا الكفر؛ بل الله هو الذي أراده لهم، لعلمه السابق فيهم، ولو لطف بهم وشاء لهم الإيمان لآمنوا.

ومن أقوى الأدلة على ذلك نزول سورة المسد التي تشهد أن أبا لهب وزوجه حمالة الحطب من أهل النار ولم يمكنه أن يكذب ذلك وينفيه بالتلفظ بالشهادتين ولو نفاقاً حتى يبطل دعوة محمد ﷺ، ولكن أنى له ذلك؟

---

(١) أي نتكل عليه ولا نعمل.

(٢) الليل: ٥-١٠.

(٣) صحيح الترمذي رقم: (٣٣٧١)، وصحح أبي داود رقم: (٤٧٠٥)، كلاهما للألباني.

(٤) البروج: ١٦.

٥. لا يستطيع أحد أن يخرج عن حكم وإرادته لأن كل العوالم العلوية والسفلية ملك له، وهو المتصرف فيها، والمدبّر لأمرها، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

٦. الله هو الخالق للخلق ولأعمالهم ولإرادتهم، لا خالق سواه، ولا رب إلا إياه.

مذاهب الناس في أفعال العباد الاختيارية:

ذهب الناس في ذلك ثلاثة مذاهب، وسط وطرفي نقيض، الوسط هم أهل السنة والجماعة، نقاوة المسلمين، ويمثل طرفي النقيض: القدرية – المعتزلة من ناحية، والجبرية من ناحية أخرى، لأن كلاً منهما نظر إلى النصوص ـآيات وأحاديث الوعد والعيدـ بعين عوراء إلى ما يؤيد مذهبه وأغفل الأخرى.

أ. **القدرية – المعتزلة:** قالوا: إن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها[2]، وقد نصر هذا الزمشخري في تفسيره، فلينتبه له، وزعموا أن الله لا يريد الشر، ولا يخلق الشر، وأن الشر بمشيئة العبد، وإرادته وقدرته، من غير تأثير لقدرة الله.

هذا مذهب باطل، باطل، باطل، وهم يزعمون أن الإنسان مخير بفعل ما يريد، ويترك ما لا يريد.

---

(١) الرحمن: ٣٣.

(٢) بل زعموا أنه لم يعلمها إلا بعد أن تصدر من العبد، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ب. الجبرية: زعموا أن العبد لا تأثير له، ولا فعل، وأن كل ما صدر منه، فهو من فعل الله، فهو مجبور مسير، وهو كالريشة في مهب الرياح، وكالميت بين يدي مغسله كما يزعمون، وأن الله لا يعذب العبد بذنب، لأن الله هو الذي شاءه وقدره له وهذا من أبطل الباطل كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

يدل على بطلان ذلك أنك إذا قلت للجبري صلِّ مثلاً، رد عليك: حتى يشاء الله، أما إذا تعدى عليه سارع للانتقام، ولم يكن للحلم والصفح عنده مقام، وكان يلزمه أن يقول: تعدي عليَّ بقدرة الله.

ومما يدل على بطلان ذلك أيضاً أننا نلوم الطغاة والجبارين ونتظلم، ولهذا شرعت لنا المدافعة عن ديننا، وأنفسنا، وحريمنا، وأعراضنا، وأموالنا، ونحمد ونشكر المحسنين، هذا بجانب استخفاف الجبرية بالتكاليف الشرعية، بالأوامر والنواهي.

ج. أما أهل الحق، أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً، يقولون: إن العبد خلق الله له قدرة، وإرادة، فله قدرة ومشيئة، ويفعل ويختار ويقدر، إلا أن قدرة الله وإرادته تصرف قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علم الله الأزلي، فيأتيه طائعاً مختاراً.

وهذا هو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال!؟

الأدلة العقلية على بطلان مذهب القدرية:

جرت بعض المناظرات بين أئمة أهل السنة وبين أئمة البدعة من الجهمية والمعتزلة انتصر فيها أهل السنة عليهم بالحجة والبرهان من غير الرجوع إلى السنة ولا إلى آي القرآن، وإليك طرفاً منها:

أ. مناظرة الإمام الإسفرائيني والقاضي عبد الجبار المعتزلي:

قال عبد الجبار: سبحان من تنـــزه عن الفاحشة ـيعني تنـــزَّهَ أن تكون السرقة، والزنا بمشيئته.

فقال أبو إسحاق الإسفرائيني: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

قال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراه تفعله جبراً عليه؟ أنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى عليَّ بالردى، دعاني وسد الباب دوني، أتراه أحسن إليَّ أم أساء؟

قال أبو إسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه، فقد ظلمك، وقد أساء، وإن كان ملكه المحض، فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[1]، حجته البالغة: هديه وتفضله بالهدى.

(١) الأنعام: ١٤٩.

ب. بدوي يغلب عمرو بن عبيد المعتزلي:

قال البدوي لعمرو بن عبيد: يا شيخ! ادع الله أن يرد عليَّ دابتي، سرقوها.

فقام عمرو بن عبيد يتقرب بهذا المذهب الباطل، وقال: اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها، لأنك أكرم، وأنزه، وأجل من أن تريد هذه القذرة القبيحة _السرقة_.

فقال له البدوي بفطرته: ناشدتك الله يا هذا ألا كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها، فقد يريد ردها ولا ترد، فألقمه حجراً.(١)

ج. مجوسي يغلب الجهمي المعتزلي بشر المريسي:

كان مجوسيٌّ صحب بشر المريسي في سفر فقال له بشر: أسلم!

فقال المجوسي: حتى يريد الله.

قال بشر: أراد الله ذلك، وشاءه، ولكن الشيطان ليس يدعك.

فقال المجوسي: فأنا مع أقواهما.

فقطعه وافحمه.(٢)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، اعتنى به وعلق عليه خالد عثمان السبت، ج٤/١٤٧٨-١٤٦٩.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١/٤١٥، ترجمة بشر المريسي.

قوله: ‹‹الباعث الرسل إليهم››.

من رحمة الله بعباده وحكمه وعدله أنه لم يتركهم سدى؛ لأنه لم يخلقهم عبثاً بل خلقهم لعبادته: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، بل أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم شرائعه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2]، وقال: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[3]. وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[4].

وأول الرسل آدم عليه السلام، وخاتمهم محمد ﷺ، وأفضل الرسل أولو العزم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام، وأفضلهم خاتمهم.

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) النساء: ١٦٣ – ١٦٥.

(٤) الحج: ٧٥.

والرسل معصومون قبل وبعد البعثة من الشرك، والكبائر، والصغائر، وكل ما يشين المروءة. وما صدر من بعضهم ولم يقروا عليه إنما هو من باب الاجتهاد، أو بسبب النسيان، وقد أيدهم الله بالمعجزات الباهرات حتى يميز الناس بين الرسول الحق ومدعي الرسالة. وكان الرسول يبعث إلى قومه خاصة إلا خاتمهم فقد بعث للناس كافة، بل للثقلين؛ الإنس والجن.

وعدد الذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون رسولاً. والرسل هم أكمل الخلق وسادتهم، ويجب علينا الإيمان بهم، ومحبتهم، والاقتداء بهم، والسير على طريقهم، ويحرم الغلو فيهم. وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

قوله: ‹‹ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين، بشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرع بدينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم››.

لقد ختم الله النبوة والرسالة بمحمد ﷺ فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

فكل من ادعى الرسالة أو النبوة فهو كذاب أشر. ولقد تنبأ الرسول ﷺ بخروج كذابين دجالين، فقد خرج مسلم في صحيحه[2]، عن أبي هريرة يرفعه إلى الرسول ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله"، يختمون بالمسيح الدجال.

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم: (٢٩٢٣).

لقد احتال بعضهم حتى يخدع السذج والمغفلين فمنهم من يدعي المهدية، ومنهم من يزعم أنه المسيح المحمدي، ومنهم من يقول إنه خاتم الأولياء، ثم يفتري على الله الكذب بأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وعندما يحتج عليه بختم الرسول ﷺ للنبوة والرسالة، يأتي بما هو أخبث من ذلك حيث يزعم أن ولاية الرسول أعظم من نبوته وهو ابن عربي الطائي الدائن بعقيدة وحدة الوجود ونحو ذلك.

وجعل شرعه خاتم الشرائع, وكتابه مهيمناً على جميع الكتب السابقة وناسخاً لها. فهدى الله به من الضلالة، وأخرج به من العماية، وأوجب طاعته في كتابه الكريم في أكثر من ثلاث وثلاثين آية أجمعها قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

وخصه بخصائص لم يخص بها أحداً من الرسل السابقين، ورفع عن أمته الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، وفضلها على غيرها من الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

(١) الحشر: ٧.

(٢) آل عمران: ١١٠.

لا يقبل إيمان من آمن بجميع الرسل ممن شهد بعثته، أوجاء بعده وبلغته دعوته، حتى يؤمن بمحمد ﷺ، ولهذا كانت شريعته وبعثته للناس كافة، وجعل الله كل الخلق من أمته فمن آمن به فهو من أمة الاستجابة، ومن لم يؤمن به فهو من أمة الدعوة، وقد قال ﷺ: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار".(١)

قال الإمام النووي ــرحمه اللهــ في شرح هذا الحديث، قوله: "من هذه الأمة ــأي أمة محمدــ من هو موجود في زمنه وبعده إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليهم الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما، وذلك أن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى والله أعلم".(٢)

وأخرج الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني".(٣)

وعندما ينـــزل عيسى عليه السلام، لا ينـــزل بشرعه، ولا بشرع جديد وإنما يكون متبعاً لشرع محمد ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم، ج١/١٣٤، وصحيح مسلم بشرح النووي، ج٢/١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٨٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم: (١٤٦٦٣).

قوله: ‹‹وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت، كما بدأهم يعودون››.

الساعة اسم من أسماء يوم القيامة، ويشير الشيخ بهذا إلى الإيمان بالركن الخامس من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، بالبعث بعد الموت للحساب؛ ولهذا قال: ‹‹كما بدأهم يعودون››.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾[1] وقال: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾[2]. وقال: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ ﴾[3].

الإيمان باليوم الآخر يلزم منه الإيمان بمقدمات هذا اليوم من العلامات والأشراط الصغرى والكبرى، التي جعلها الله دلالة على قربه، كذلك يلزم منه الإيمان بما بعده من الإيمان بالجنة، والنار، والحوض، والميزان، والحشر، والحساب.

---

(١) الطارق: ٥ – ٩.

(٢) القيامة: ١ – ٤.

(٣) ق: ٤٢ – ٤٤.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]. وقال: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾[2].

وأشراط الساعة الصغرى كثيرة جداً وقد ظهرت جلها وإن لم يستفحل بعضها، ومن أظهرها كثرة الزلازل، وموت الفجاءة، وتقارب الزمان، وكثرة النساء، وانتشار شرب الخمور والزنا، وفشو الجهل، وانحسار العلم، ونحوها.

أما العلامات الكبرى فقد أخبر عنها رسولنا ﷺ كما جاء في حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد قال: "كان النبي ﷺ في غرفة، ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا فقال: ما تذكرون؟ قلنا: الساعة. قال: إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن، ترحل الناسَ".[3]

وقال أحد رواة الحديث في العاشرة: "نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال الآخر: ريح تلقي الناس في البحر".

وفي رواية عنه في صحيح مسلم، قال: "ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: "لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات".

---

(١) النمل: ٨٢.

(٢) الكهف: ٩٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم: (٢٩٠١).

ومن أشراط الساعة التي عمت بها البلوى في هذا العصر في كثير من ديار الإسلام الاستغاثة بذوات وجاه الأحياء والأموات لأمور لا يستطيعها إلا الله ﷻ نحو طلب الولد، وسؤال العافية والذبح والنذر وتقديم القرابين لهم.

لقد تنبأ الرسول ﷺ بحدوث ذلك وعدها من أشراط الساعة المنذرة يقربها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة".(١)

وكانت صنماً تعبدها قبيلة دوس في الجاهلية، بتبالة، موضع باليمن.

ومن أشراط الساعة كذلك المؤذنة بقربها كثرة الهَرْج وهو القتل، حتى يتمنى الصالحون الموت.

فعن أبي هريرة ﷺ كذلك يرفعه: "لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر رجل، فيقول: يا ليتني مكانه".(٢)

وعنه ﷺ يرفعه إلى الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده! ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتَل، ولا المقتول في أي شيء قُتِل".(٣)

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، رقم: (٢٩٠٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم: (١٥٧).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم: (٢٩٠٨).

قوله: ‹‹وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات››.

من فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن ضاعف لهم الأجور والحسنات تعويضاً عن قصر أعمارهم بالنسبة للأمم السابقة؛ فقد صح عنه ﷺ أنه قال: "أعمار أمتي بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك".(١)

قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾(٢).

وقال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾(٣). وقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾(٤).

ومن فضله وإحسانه كذلك على هذه الأمة أن كفر عنهم صغائر الذنوب باجتناب كبائرها، وجعل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان, والحج مكفرات لما بينها إن اجتنبت الكبائر.

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي، رقم: (١١٩٩)، ورواه الترمذي كذلك وقال في "فيض القدير" ج١١/٢: وقال الترمذي: حسن غريب، وأبو يَعلَى في مسنده ورجاله ثقات إلا عبد الأعلى شيخ هشم.

(٢) الأنعام: ١٦٠.

(٣) البقرة: ٢٤٥.

(٤) البقرة: ٢٦١.

قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[1].

كذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون، أن جعل الدخول في الإسلام مكفراً لما قبله من الآثام، وجعل التوبة تجب ما قبلها وأوجب علينا التوبة من جميع الذنوب فقال: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"[4].

(١) النساء: ٣١.

(٢) النور: ٣١.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) صحيح مسلم، رقم، (٢٧٦).

قوله: ‹‹وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشـــيئته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، ومن عاقبه الله بناره أخرجـــه منها بإيمانه فأدخله به جنتـــه: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾، ويخرج منها بشفاعة النبي من شفع له من أهل الكبائر من أمته››

يشير الشيخ ــرحمه اللهــ إلى ما أجمع عليه أهل السنة أن مرتكبي الكبائر إذا ماتوا ولم يتوبوا منها فأمرهم إلى الله ﷻ، إن شاء رحمهم وتجاوز عنهم، وإن شاء طهرهم بالنار ثم أخرجهم منها، وأدخلهم الجنة إذ لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، خلافاً لأهل الأهواء الرادين لقول الله ورسوله، والمتأولين له بتأويلات فاسدة، من الخوارج الذين زعموا أن الإيمان يذهب بالكلية بارتكاب أي كبيرة من الكبائر حيث يصير صاحبُه كافراً خالداً مخلداً في النار، وما زعمته المعتزلة بأنه فاسق خالد مخلَّد في النار إن لم يتب قبل موته.

الذنب الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر وما سواه قابل للمغفرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]. وقال ﷺ: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي".[2]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: "لكل نبي دعوة يدعو بها، فأنا أرجو إن شاء الله أن أختبئ دعوتي: شفاعة لأمتي يوم القيامة".[3]

---

(١) النساء: ٤٨

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (٤٧٣٩).

(٣) صحيح مسلم، ج١/١٨٩، ١٩٠.

وصح عنه ﷺ أنه قال: "إن الله يخرج قوماً من النار فيدخلهم الجنة".[1]

شفاعات الرسول ﷺ في الآخرة ـ سوى شفاعته الكبرى لأهل المحشر ـ وكذلك شفاعات غيره من الأنبياء، والملائكة، والرحم، والقرآن، والمؤمنين، وغيرها، لا يستفيد منها ويتمتع بها إلا الموحدون، أما من مات وهو يشرك بالله شيئاً فلا حظ له في ذلك، إذ الشفاعة في الآخرة لها شرطان هما:

١. إذن الرب للشافع أن يشفع.

٢. ورضا الرب عن المشفوع له.

وحاشا الرب أن يرضى عن المشرك الذي يدعو ويستغيث بغير الله مثلاً، فالجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب.

فانتبهوا يا أولي الألباب، واحذروا الشرك المحبط لجميع الأعمال، الموجب لغضب الجبار، المخلد صاحبه في النار، المانع من شفاعة سيد الأبرار.

قوله: ‹‹وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه, وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه. وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته››.

يشير الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى ما هو مقرر عند أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان ومعدتان، خلق الجنة فجعلها دار خلود لعباده المؤمنين، والنار دار خلود للكفار والمنافقين المعاندين، وأنهما دائمتان لا تفنيان.

---

(١) مسلم، ج١/ ١٧٨.

وأن الجنة التي أهبط منها آدم هي الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وليست هي بستاناً كما يزعم المعتزلة ومن وافقهم.

وأن الله ﷻ يتجلى لعباده في الجنة فينظرون إلى وجهه الكريم بينما يحجب عن ذلك أصحاب الجحيم. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]. وقال: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[2]

وعن ابن عباس ﷺ قال: "قال رسول الله ﷺ: "إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت، حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت؛ فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم".[3]

وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

وعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر، ليلة أربع عشرة، فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا".[5]

---

(١) الزخرف: ٧٢.

(٢) هود: ١٠٧ – ١٠٨.

(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم: (٦٥٤٨).

(٤) القيامة: ٢٢ – ٢٣.

(٥) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (٤٧٢٩).

وقال تعالى عن الكفار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

قوله: ‹‹وأن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والمَلَكُ صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابهم››.

يشير الشيخ إلى صفة المجيء التي أثبتها الله لنفسه في قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[2]، مجيئاً يليق بجلاله وعظمته، لا يعلم كيفيته إلا الله ﷻ، للفصل بين العباد، وذلك بعد أن يضيق بالناس الحال في المحشر فيتمنون الانصراف منه، ولو إلى النار فيهرع الناس إلى أبيهم آدم ليشفع لهم عند ربهم، فيعتذر عن ذلك ويقول لهم: اذهبوا إلى نوح فإنه أول رسول، فيعتذر نوح ومن بعده من أولي العزم؛ إبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، فيذهبون إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها، فيسجد عند العرش فيلهمه الله محامد يحمد ويثني بها على ربه، فيقال له: يا محمد! ارفع رأسك، سل تُعطَ واشفع تشفع، كما صح ذلك في حديث الشفاعة الطويل.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً".[3] قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض".[4]

---

(١) المطففين: ١٥.

(٢) الفجر: ٢٢.

(٣) غير مختونين.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٥٩).

وعن المقداد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تدنى الشمس يوم القيامة، من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل".(١)

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين عاماً، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم".(٢)

قوله: ‹‹وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ويؤتون صحائفهم بأعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً››.

الله ﷻ حكم عدل، حَرَّم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً، ونهانا عنه، فقال في الحديث القدسي الذي خرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ يرفعه إلى الرسول ﷺ: "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا". فبالعدل قامت السموات والأرض، وبالظلم يفسد العباد وتخرب البلاد.

وقال ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم".(٣)

---

(١) المصدر السابق، رقم: (٢٨٦٤).

(٢) المصدر السابق، رقم: (٢٨٦٣).

(٣) مسلم، رقم: (٢٥٧٨).

إذا كان القصاص يوم القيامة يطول ويشمل العجماوات فكيف بالعقلاء المكلفين؟! عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لتُؤَدّونَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[١] من الشاة القرناء"[٢].

القصاص يوم القيامة يكون بالحسنات والسيئات، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار".[٣]

فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والجاهل من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، كما أخبر الصادق المصدوق.

ولله در عمر عند ما قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزَنَ عليكم، وتزينوا ليوم العرض الأكبر".

---

(١) التي لا قرن لها.

(٢) مسلم رقم: (٢٥٨٢).

(٣) مسلم، رقم: (٢٥٨١).

فالإيمان بالحساب، والقصاص، ووضع الموازين لذلك يوم القيامة جزء لا يتجزأ عن الإيمان باليوم الآخر. قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[1]، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ ﴾[2].

وقال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾[3].

وقال: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذِ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "من حوسب يوم القيامة عذب. فقلت: أليس قد قال الله ﷻ: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً)، فقال: "ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب عذِّب".[5]

فالحمد لله الذي سبقت رحمته غضبه، وأسبغ فضله وإحسانه على عباده المؤمنين، ولطف بهم، و لم يسو بينهم وبين الضالين المجرمين.

---

(١) الزلزلة: ٧ – ٨.

(٢) الانشقاق: ٧ – ١٣.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) الأعراف: ٨ – ٩.

(٥) مسلم كتاب الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٧٦).

ولهذا صح عنه ﷺ قوله: "لا يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة، ولا يجيره من النار، قالوا: ولا أنت؟ قال: "حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته".[١]

قال القحطاني المالكي في نونيته[٢]:-

وكذلك الأعمال يومئذ ترى ... موضوعة في كفة الميزان
والكتب يومئذ تطاير في الورى ... بشمائل الأيدي وبالأيمان
والله يومئذ يجيء لعرضنا ... مع أنه في كل وقت داني
وعليه عرض الخلق يوم معادهم ... للحكم كي يتناصف الخصمان
يوم القيامة لو علمت بهوله ... لفررت من أهل ومن أوطان
يوم تشققت[٣] السماء لهوله ... وتشيب فيه مفارق الولدان
يوم عبوس قمطرير شره ... في الخلق منتشر عظيم الشان

قوله: ‹‹وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم".

يشير الشيخ إلى مرور الخلق يوم القيامة على الصراط وهو جسر بين الجنة والنار، وتفاوت الناس في المرور عليه حسب أعمالهم وتساقط الكفار فيه وهذا هو المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾[٤].

---

(١) مسلم، رقم: (٢٨١٧)، في كتاب صفة المنافقين.

(٢) ص: ١٧-١٩.

(٣) قال تعالى: (وإذا السماء انشقت) الانشقاق: ١.

(٤) مريم: ٧١.

روى مسلم في صحيحه أحاديث تبين كيفية جواز الخلق على الصراط وهي:

- عن أبي هريرة ﷺ يرفعه إلى الرسول ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: "... فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم[١]، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت[٢]: بأبي أنت وأمي! أي شيء كمر البرق؟ قال: "ألم تروا أن البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال[٣] تجري بهم أعمالهم. ونبيكم قائم على الصراط يقول: ربِّ! سلّم سلّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً. قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناجٍ، ومكدوس[٤] في النار".[٥]

والذي نفس أبي هريرة بيده! إن قعر جهنم لسبعون خريفاً، وحذيفة روى هذا الحديث عن أبي هريرة.

---

(١) مما يدل على خطورتهما وأهميتهما في الإسلام.

(٢) القائل حذيفة راوي الحديث.

(٣) شدة جريهم وعدوهم.

(٤) مدفوع من ورائه فيسقط.

(٥) مسلم في الإيمان، رقم: (١٩٥).

• عن أبي سعيد الخدري ﷺ فيما اتفق عليه الشيخان[١] يرفعه إلى رسول الله ﷺ في حديث طويل عند مسلم: "... ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل[٢] الشفاعة، ويقولون: اللهم سلّم سلّم. قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال ﷺ: "دحض [٣] ومزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحَسَك[٤]، تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، والريح وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالله الذي نفسي بيده، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. يقولون: ربنا! كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار ...".

قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف.

كان كثير من السلف مشفقين من هذا الورود مع جهل الصدر منه، منهم الفقيه المالكي أبو ميسرة حيث كان إذا أوى إلى فراشه يقول: "ليت أمي لم تلدني! فتقول له امرأته: يا أبا ميسرة! إن الله قد أحسن إليك، وهداك إلى الإسلام. قال: أجل، ولكن الله قد بين لنا واردي النار ولم يبين لنا صادريها".[٥]

---

(١) البخاري في التوحيد، رقم: (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان، رقم: (١٨٣).

(٢) يؤذن فيها.

(٣) دحض ومزلة بمعنى واحد حيث تزل الأقدام ولا تثبت.

(٤) حسك: شوك صلب من حديد.

(٥) قال محقق صحيح التذكرة للقرطبي: صحيح، أخرجه أبو نعيم في الحلية، ج١٤١/٤.

قوله: ‹‹والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته، لا يظمأ من شـــرب منه، ويذاد عنه من بدل وغيَّر››.

يشير الشيخ إلى الإيمان والتصديق بما أكرم الله به رسولنا وأمته يوم القيامة من:

١. الحوض.

٢. والكوثر.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾[١].

وأنه من شرب من حوضه شربة واحدة لا يظمأ بعدها أبداً، وأن هناك جماعة من هذه الأمة يذادون أي يمنعون وهم الذين ارتدوا عن الإسلام وأهل البدع العظام من الخوارج، والرافضة، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، ومن شاكلهم، لا كما يزعم الرافضة أن الذين يذادون هم خيار الصحابة بسبب تقديمهم للخلفاء الثلاثة على علي، كبرت كلمة تخرج من أفواهم؛ فعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: "أنا فرطكم[٢] على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا ربّ! أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك".[٣]

(١) الكوثر: ١ – ٣.

(٢) أي سابقكم.

(٣) البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم: (٦٥٧٥).

وبين ﷺ سعة هذا الحوض، ووصف آنيته وماءه وريحه، فعن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ: "أمامكم حوضي كما بين جرباء وأذرح[١]".[٢]

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً".[٣]

لكل نبي حوض ولكن لحوض نبينا خصوصية في السعة وطيب الماء، وطيب ريحه، وكثرة وارديه. عن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة".[٤]

ومما يدل على تغاير الحوض والكوثر، وأن الحوض قبل الصراط، والكوثر في الجنة ما خرجه البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: "بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه _أو طيبه_ مسك أذفر".[٥] شك الراوي.

---

(١) هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ٣ أيام أو أكثر.

(٢) البخاري في الرقاق، رقم: (٦٥٧٧).

(٣) البخاري في الرقاق، رقم: (٦٥٧٩).

(٤) الترمذي في جامعه رقم: (٢٤٤٣)، وصحيح سنن الترمذي رقم: (٢١٥٦) للألباني.

(٥) البخاري في الرقاق، رقم: (٦٥٨١).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: "بيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُبتَسمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيه رَبِّي ﷻ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ".[1]

فسر ابن عباس ﷺ الكوثر الذي أعطيه الرسول ﷺ بأنه هو الخير الكثير.

خرج البخاري في صحيحه[2] بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ﷺ قال: الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه".

فلا تعارض بين هذين التفسيرين، كما قال ابن جبير فالنهر جزء لا يتجزأ من الخير الكثير الذي أعطيه نبينا ﷺ في الدنيا، برفع ذكره، وانتشار دعوته وفي الآخرة بهذا النهر، وبالشفاعة، وغير ذلك كثير.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، رقم: (٦٠٧).

(٢) رقم: (٦٥٧٨).

قال القرطبي ــرحمه اللهــ راداً على من زعم أن حوض النبي ﷺ بعد الصراط: "والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين: أحدهما في الموقف قبل الصراط، والثاني في الجنة، وكلاهما يسمى كوثراً ... والكوثر في كلام العرب: الخير الكثير، واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر، فقيل: الميزان، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل".(١)

الإيمان بالحوض والكوثر وغيرهما واجب لتواتر الأخبار بذلك، وهذا ما عليه أهل السنة قاطبة، وذهب بعض أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة ومن شابههم إلى إنكار ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي في "المفهم" تبعاً للقاضي عياض في غالبه: "مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به، أن الله ﷻ قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه، وصفته، وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت روايته، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ومن بعدهم أضعاف أضعافهم، وهلم جراً، وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة، وأحالوه على ظاهره، وغلوا في تأويله من غير استحالة عقلية، ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجة تدعو إلى تأويله، فخرق من حرفه إجماع السلف, وفارق مذهب أئمة الخلف.

---

(١) "صحيح التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للإمام القرطبي، اختصره وحققه وعلق عليه أبو عبيدة بن محمد الجمال، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ج١/١١٤-١١٥.

قلت: أنكره الخوارج وبعض المعتزلة".[١]

قال الإمام القرطبي عن المطرودين من حوضه المذادين عنه: "قال علماؤنا ــرحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء والبدع.

وعن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله ﷺ: "أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي. فمن غشي أبوابهم فصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، ولا يرد عليّ الحوض. ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم في كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وسيرد عليَّ الحوض.

يا كعب بن عجرة! الصلاة برهان، والصبر جنة حصينة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، يا كعب بن عجرة! إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به"[٢]

---

(١) الفتح: ج١١/٤٦٧.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الجمعة، رقم: (٦١٤)، وقال: حسن غريب، وقال محقق صحيح التذكرة، ج١/١١٨ هامش (٢): صحيح، وصحيح الترمذي للألباني رقم: (٦١٤) وقال: صحيح.

قوله: ‹‹وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال _الصالحة_ وينقص بنقصها، فيكون بها النقص، وبها الزيادة. ولا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

يقرر الشيخ ما عليه أهل السنة سلفاً وخلفاً من أن:

١. الإيمان قول، وعمل، واعتقاد.

٢. وأن الإيمان له أصل وكمال.

٣. وأن أعمال القلوب جزء لا يتجزأ من الإيمان.

٤. وأن الإيمان ليس ثابتاً وإنما يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والردى، وأما أصله فلا ينقص.

٥. وأن الله لا يقبل عملاً إلا بشرطين:

أ. الصدق والإخلاص وابتغاء وجهه ﷻ، وهو الميزان الداخلي للعمل.

ب. موافقة السنة، وهو الميزان الخارجي للعمل.

٦. وفي تقريره رد ضمني على ما تقوله المرجئة في قصر الإيمان على مجرد التلفظ بالقلب، أو التصديق الذي لا ينتج عنه عمل، وفي إخراجهم لأعمال القلوب من مسمى الإيمان، وعلى الجهمية الذين قصروا الإيمان على المعرفة، ففي شرعهم فإن إبليس وفرعون من المؤمنين كاملي الإيمان.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[1] وقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2]. وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[3], وقال: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾[4].

أما الدليل على نقصان الإيمان ما صح عن أبي هريرة ﷺ يرفعه[5] إلى الرسول ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[6]، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن".

قال النووي في تأويل هذا الحديث: "القول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي، وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله ومختاره كما يقال: لا علم إلا ما نفع ... ولا عيش إلا عيش الآخرة".

---

(١) الكهف: ١٠٧.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) محمد: ١٧.

(٤) المدثر: ٣١.

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١/٤١-٤٢.

(٦) أي كامل الإيمان.

إلى أن قال: "وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق"، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور: "إنهم بايعوه ﷺ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا إلى آخره، ثم قال لهم ﷺ: فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل و لم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه".[١]

قال ابن حجر: "قيل لابن عيينة: إن قوماً يقولون: الإيمان كلام، فقال: كان هذا قبل أن تنـــزل الأحكام، فأمر الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم. فلما علم الله صدقهم أمرهم بالصلاة ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما ينفعهم الإقرار.

فذكر الأركان إلى أن قال:

فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم قال: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾[٢]، فمن ترك شيئاً من ذلك كسلاً، أو مجوناً أدبناه عليه وكان ناقص الإيمان، ومن تركها جاحداً كان كافراً". انتهى ملخصاً.[٣]

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢/٤١.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الفتح، ج١/١٠٣.

وقال ابن أبي زيد[١]: "وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية نقصاً عن حقائق الكمال لا محبطاً للإيمان، ولا قول إلا بعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

وقال في موضع آخر من الكتاب[٢]: "قال مالك: والإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وفي بعض الروايات عنه: دع الكلام في نقصانه، وقد ذكر الله زيادته[٣] في القرآن. قيل ـأي لهـ فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

قال بعض أهل العلم: إنما توقف مالك عن نقصانه في هذه الرواية خوفاً من الذريعة[٤]: أن تتأول أنه ينقص حتى يذهب كله فيؤول ذلك إلى قول الخوارج الذين يحبطون الإيمان بالذنوب ولكن إنما نقصه عنده، فيما وقعت فيه زيادة، وهو العمل".

---

(١) في كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تحقيق محمد أبو الأجفان، وعثمان بطيخ، ص: ١١٠-١١١.

(٢) ص: ١٢١.

(٣) وقد ذكر رسول الله ﷺ نقصانه في المصدر الثاني للوحي في السنة، من ذلك: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"، والمراد قوة وضعف الإيمان.

(٤) أي سداً للذريعة.

ومن الأدلة على نقصان الإيمان كذلك ما صح عن ابن عمر ﷺ برفعه إلى الرسول ﷺ: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أغلب لذي لب منكن[١]"، قالت: وما نقصان العقل والدين؟ قال: "أما نقصان العقل فشهادة امرأتين شهادة رجل، وأما نقصان الدين فإن إحداكن تفطر رمضان، وتقيم أياماً لا تصلي".[٢]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً"[٣]، وفي المقابل فإن سيء الأخلاق أنقص إيماناً.

ومما يدل على دخول الأعمال في الإيمان قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[٤]، أي صلاتكم التي صليتموها قبل تحويل القبلة وكذلك قوله: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[٥].

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني المالكي في نونيته[٦]:

إيماننا بالله بين ثلاثة ... عمل وقول واعتقاد جنان
ويزيد بالتقوى وينقص بالردى ... وكلاهما في القلب يعتلجان

---

(١) أي النساء.

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: ٤٦٧٩، في كتاب السنة وقال: صحيح.

(٣) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: ٤٦٨٢، وصحيح سنن الترمذي له، رقم: ١١٧٨.

(٤) البقرة: ١٤٣.

(٥) الحجرات: ١٤.

(٦) ص: ٢٥.

قوله: ‹‹وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة››.

يشير ــرحمه اللهــ إلى مذهب أهل السنة والجماعة في النهي عن التكفير بالمعاصي إن لم تستحل، وإلى الرد على الخوارج الذين يكفرون مرتكبي الكبائر.

وكان الأوفق أن يقول: إنه لا يكفر أحد بكل ذنب من أهل القبلة لأن هناك ذنوب يكفر مقترفها نحو:

١. السجود للصنم.
٢. سب اللهِ ﷻ، وملائكتهِ، ورسلِه، أوأحدٍ منهم، أوسبِّ الدِّين.
٣. الإتيان بناقض من نواقض الإسلام والإيمان.
٤. إنكار ما هو معلوم من الدين ضرورة.
٥. نبذ حكم الشرع وتبديله بالدساتير والقوانين الوضعية.

وفي البدء لا بد من تقرير الآتي:

أولاً:

أن الإكفار[1] ملك لله ورسوله فلا يكفر إلا من أكفراه.

ثانياً:

الإكفار، والتضليل، والتفسيق، والتبديع، من الأمور الشائكة التي لا ينبغي أن يخوض فيها كل إنسان وإنما يكون هذا قاصراً على العلماء والفقهاء الراسخين المتمكنين.

---

(١) الصحيح الإكفار وليس التكفير.

ثالثاً:

الإكفار نوعان:

أ. بدعي: نحو الإكفار باقتراف المعاصي من غير استحلال لها، أوبالهوى نتيجة لتعصب وهذا المشار إليه بقوله ﷺ: "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ".(١) وهو الذي ورد فيه الوعيد والنهي.

ب. شرعي أو سني: وهو إكفار من أكفره الله ورسوله. لقد كفر عدد من السلف من زعم أن القرآن مخلوق، منهم مالك، وأبو عبيد، وسفيان ابن عيينة، وابن مهدي، وغيرهم"(٢)

رابعاً:

الإكفار يكون بالقول والفعل والاعتقاد، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ (٣).

(١) متفق عليه، البخاري، كتاب الأدب، رقم: ٥٦٣٨، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم: ٩٨، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، جـ٢/٣١٣ الصفحات التي تليها.

(٣) التوبة: ٦٥ – ٦٦.

خامساً:

من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكفر لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ (١). لكن الأفضل حتى في حال الإكراه الأخذ بالعزيمة لمن قوي على ذلك كما فعل بلال وعبد الله بن حذافة، وحبيب بن زيد من الصحابة رضوان الله عليهم، كما هو معلوم عنهم.

سادساً:

لا يكفر أحد إلا إذا توفرت فيه الشروط وهي: البلوغ، والعقل، والاختيار، وانتفت الموانع وهي أربعة: الجهل، والتأويل أوالشبهة المستساغة، والخطأ، والإكراه.

سابعاً:

الاعتقاد بالقلب ليس مانعاً من الإكفار عند أهل السنة، للآية السابقة: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ . . . ﴾ (٢). وإنما هذا مذهب المرجئة المخذولين، وحاشا أن يعتقد هذا أحد من أئمة السنة السابقين منهم واللاحقين، إذ على هذا القول الباطل لا يكفر من قال: عيسى وعزير أبناء الله، أو قال الله ثالثة ثلاثة إلا إذا اعتقد ذلك بقلبه.

---

(١) النحل: ١٠٦.

(٢) التوبة: ٦٥ – ٦٦.

وفي ذلك رد لقوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[١].

ولم يقل: "اعتقدوا بقلوبهم".

وقال عز من قائل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٢].

فحكم الله ﷻ على الذين قالوا: عزير والمسيح أبناء الله بالكفر على القول ولم يشر إلى اعتقادهم.

وكذلك عندما جاء عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ وكان نصرانياً لابساً الصليب تلا عليه قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[٣] وقال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه".[٤]

فبين أن طاعتهم لهم في ذلك وهي عمل وإن لم يكن مصحوباً باعتقاد فهو كفر.

---

(١) المائدة: ٧٣.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) رواه الترمذي، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: (٣٠٩٥).

قال العلامة ابن الوزير[١] اليماني في كتابه القيم[٢] وهو يتكلم عن أحد موانع الإكفار وهو الجهل: "ولهذا قال جماعة جلة من علماء الإسلام إنه لا يكفر بما يندر[٣] منه من ألفاظ الكفر، إلا أن يعلم المتلفظ بها أنها كفر. قال صاحب المحيط: وهو قول أبي علي الجبائي، ومحمد[٤]، والشافعي. قال الشيخ مجتبى: وبه يفتى، ولعل هذا الحديث[٥] الصحيح المتواتر حجتهم على ذلك.

وهذا خلاف متجه، بخلاف قول البهاشمة: لا يكفر وإن علم أنه كفرٌ حتى يعتقده".

قال الإمام الرباني ابن القيم في نونيته "الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" مبكتاً ومنكراً على المرجئة والجهمية:

وكذلك الإرجاء حين تقربـاً بالـ ... ـمعبود تصبح كامل الإيمان
فارم المصحاف في الحشوش وخرب ... البيت العتيق وجد في العصيان
واقتل إذا ما استطعت كل موحد ... وتمسحن بالقسّ والصلبان
واشتم جميع المرسلين ومن أتوا ... من عنده جهراً بالاكتمان
وإذا رأيت حجارة فاسجد لها ... بل خر للأصنام والأوثان
وأقر أن الله جل جلاله ... هو وحده الباري لذي الأكوان
وأقر أن رسوله حقاً أتى ... من عنده بالوحي والقرآن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن المرتضى من مجتهدي القرن الثامن الهجري (٧٧٥-٨٤٠هـ).

(٢) "إيثار الحق على الخلق" في رد الخلاف إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، ص: ٣٩٤.

(٣) يخرج ويتلفظ.

(٤) محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة.

(٥) حديث الذي جهل قدرة الله فأمر بحرقه وذره في الهواء.

فتكـــون حقـــاً مؤمنـــاً وجميـــع ذا وزر عليـــك ولـــيس بـــالكفران
هذا هـــو الإرجـــاء عنـــد غلاتهـــم من كل جهمي أخـــي الشـــيطان

من الغريب العجيب أن تروج هذه الشبهة الخاسرة، والسلعة المزجاة البائرة على نفر كريم من مشايخ أهل السنة وشبابهم على الرغم من مخالفتها[1] البينة الواضحة لما كان عليه سلفهم الصالح وخلفهم الفالح أمثال مشايخنا المعاصرين: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ عبد الله ابن جبرين، والشيخ بكر أبو زيد، على سبيل المثال لا الحصر، رحم الله أمواتهم ونفع الله ومتع بأحيائهم.

نسأل الله أن يردنا وإياهم وجميع إخواننا المسلمين إليه رداً جميلاً وأن يؤلف بين قلوبنا ويذهب الغل من صدورنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ثامناً:

من أكفره الله ورسوله كفر وأطلق الكفر عليه معيناً كان أم عاماً، وإلا كيف يعلم العامة أن مرتكب ذلك كافر؟ وكيف يكون الزجر لمن يتجاسر على ذلك، فقط المطلوب منا أن نتأكد أن ما جاء به كفر مع توفر الشروط وانتفاء الموانع.

سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ــرحمه اللهــ: هل يجوز إطلاق الكفر على الشخص المعين إذا ارتكب مكفراً؟

---

(١) انظر كتاب "التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد"، بقلم علي عبد القادر السقاف، قرظه وأوصى بطبعه الشيخ ابن باز رحمه الله.

فأجاب قائلاً: "إذا تمت شروط التكفير في حقه جاز إطلاق الكفر عليه بعينه، ولو لم نقل ذلك ما انطبق وصف الردة على أحد، فيعامل معاملة المرتد في الدنيا، هذا باعتبار أحكام الدنيا، أما أحكام الآخرة فتذكر على العموم لا على الخصوص ولهذا قال أهل السنة: لا نشهد لأحد ـ من أهل القبلة ـ بجنة ولا نار، إلا لمن شهد له النبي ﷺ.

وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكن لا نحكم بهذا لشخص معين، إذ إن الحكم المطلق لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه".(١)

فالحكم بالكفر لا يمكن أن يكون معلقاً في الهواء بل لا بد من إنزاله على من يستحقه ممن أكفره الله ورسوله فكما أنه يحرم علينا أن نطلق هذا الحكم على من لا ينطبق عليه لا يحل لنا كذلك أن نتحرج من إطلاقه على من هو أهل له بعد التثبت والتأكد من ذلك، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

تاسعاً:

الذي يتولى وينطق ويفتي بإكفار من أكفره الله ورسوله هم ولاة الأمر من العلماء، والذي ينفذ هذا الحكم وما يترتب عليه هم ولاة الأمر من الحكام.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ج٢/فتاوى العقيدة، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم، دار الثريا للنشر، ص: ١٢٥.

فلا ينبغي لولاة الأمر من العلماء أن يتهاونوا في ذلك، ولا ينبغي لولاة الأمر من الحكام أن يجبنوا من تنفيذ حكم الشرع على من ثبت عليه، ولا يحل لحاكم ولا قاض أن يرضى بغير حكم الله وشرعه بديلاً أو أن يستبدل الذي هو أدنى ـ القوانين الوضعية المستوردة من الكفار ـ بالذي هو خير ـ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن فعل فهو محكوم عليه بحكم الله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ . . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . . . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2].

قوله: ‹‹وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون››.

يشير الشيخ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[4]

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) المائدة: ٤٤ – ٤٧.

(٣) البقرة: ١٥٤.

(٤) آل عمران: ١٦٩ – ١٧١.

والدليل على حياة الشهداء بعد مفارقتهم لهذه الحياة الدنيا ما صح عن مسروق: قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . . . ﴾ الآية، فقال: "أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربّ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا".[1] وابن مسعود رضي الله عنه لا يقول مثل هذا الكلام من عنده، بل لا بد أن يكون سمعه من رسول الله ﷺ ولهذا له حكم الرفع.

الموعودون بهذه الحياة هم الشهداء في سبيل الله ﷻ ممن قدموا أرواحهم رخيصة للذب والدفاع عن دين الله ﷻ. وهؤلاء تجري عليهم أحكام الشهادة في الدنيا من عدم غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم في ثيابهم التي قتلوا فيها في أرجح قولي العلماء.

وهناك شهداء لا تجري عليهم أحكام الدنيا وإنما يوفون أجورهم يوم القيامة وهم:

- المبطون _الذي يموت بسبب الإسهال.
- المطعون _من مات في وباء من الأوبية.
- والغريق.

---

(١) مسلم في صحيحه، في الإمارة، رقم: (١٨٨٧).

- وصاحب الهدم.
- وصاحب الحرق.
- المرأة تموت في نفاسها.

فهؤلاء يغسلون، ويكفنون، ويصلى عليهم.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله".[١]

وعن جابر قال: قال رسول الله: "الشهداء سوى القتل في سبيل الله: المطعون، والمبطون، والغرق، والحرق، وصاحب ذات الجنب، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت بجمع شهيدة".[٢] أي ولدها في بطنها.

(١) صحيح مسلم في الإمارة، رقم: (١٩١٤)، والبخاري في الأذان، رقم: (٦٥٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: (٣١١١)، للألباني ، وصححه الألباني في المشكاة، رقم: (١٥٦١).

وقوله: ‹‹وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (١).

يشير الشيخ بذلك إلى الحياة البرزخية، فالدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ, والدار الآخرة الباقية. وأن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وأن عذاب القبر ونعيمه حق يصيب الجسد والروح معاً وإن كان نصيب الروح أكثر من نصيب الجسد، عكس الحال في دار الدنيا حيث يكون نصيب الجسد أوفر، وفي دار البقاء، يستويان، وهذا النعيم والعذاب يناله كل ميت قُبِر أم لم يُقبَر، أكلته السباع، أم أحرق بالنار.

الأدلة على عذاب القبر من القرآن.

قوله تعالى عن آل فرعون: **﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾** (٢).

وقوله: **﴿ سَنُعَذِّبُهُم (٣) مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾** (٤).

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) العذاب الأول قيل يوم بدر، والثاني هو عذاب القبر.

(٤) التوبة: ١٠١.

وعن عائشة رضي الله عنها: "أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر". زاد قندر: "عذاب القبر حق".[١]

والدليل على أن عذاب القبر ونعيمه يصيب الجسد والروح معاً ما صح عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم_ أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ (لمحمد ﷺ). فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً، من الجنة، فيراهما جميعاً.

قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره.

ثم رجع إلى حديث أنس، قال: وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين".[٢]

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الجنائز، رقم: (١٣٧٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم: (١٣٧٤).

وعن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: "إن المسلم إذا سئل في القبر، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قول الله ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [١]. "[٢]

قال ابن أبي زيد في "كتاب الجامع"[٣]: "وأن الخلق ميتون بآجالهم فأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاء باقية في سجين معذبة إلى يوم الدين، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأن عذاب القبر حق".

وقال القحطاني المالكي في نونيته[٤]:

وحياتنا في القبر بعد مماتنا حقاً ويسألنا به الملكان
والقبر صح نعيمه وعذابه وكلاهما للناس مد خران

عن عثمان قال: إن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ.

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ".[٥]

وللقبر ضمة لو نجا منها أحد لنجا منها الصحابي السابق للإسلام سعد ابن معاذ رضي الله عنه الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وشيعته وحملت جنازته الملائكة الكرام.

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) صحيح أبي داود للألباني، رقم: (٤٧٥٠)، وصحيح ابن ماجة للألباني، رقم: (٤٢٦٩).

(٣) ص: ١١١.

(٤) ص: ١٦.

(٥) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (١٦٨٤) وحسنه.

عن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "هذا الذي تحرك له عرش الرحمن، وفتحت له أبواب السموات، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه".[١]

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن للقبر ضغطة، لو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ".[٢]

قال الإمام الذهبي ــرحمه اللهــ في "سير أعلام النبلاء" في ترجمة سعد بن معاذ[٣] ﷺ عن هذه الضمة التي ضمها سعد في قبره: "هذه الضمة ليس من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه[٤] في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك.

فهذه الأراجيف كلها فد تنال العبد، وما هي من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقي يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه.

---

(١) حديث صحيح، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٣٦٩٥)، والنسائي في سننه كما قال محقق صحيح التذكرة: ص: ٣٨، هامش (١).

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد، ٥٥/٦، وصحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (٢١٨٠)، المصدر السابق، هامش (٢).

(٣) ج١/٢٩٠.

(٤) الحميم: الصديق.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ (١)، وقال: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾(٢)، فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفي.

ومع هذه الهزات فسعد ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وانه من أرفع الشهداء، رضي الله عنه، كأنك بهذا تظن أن الفائز لا يناله هول في الدارين، ولا روع ولا ألم، ولا خوف. سل ربك العافية، وأن يحشرنا في زمرة سعد".

وعامة عذاب القبر _أعاذنا الله منه_ من أمرين كما أخبر الصادق المصدوق هما:

١. عدم التنـــزه والتستر من البول.

٢. والمشي بالنميمة.

قوله: ‹‹وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك من علم ربهم››.

هؤلاء الحفظة هم الكرام الكاتبون، أحدهما عن اليمين والثاني عن الشمال.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾ (٣).

وقال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾ (٤).

---

(١) مريم: ٣٩.

(٢) غافر: ١٨.

(٣) الانفطار: ١٠ – ١٢.

(٤) ق: ١٨.

ومع ذلك فالرب يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قال ابن أبي زيد عازياً لمالك: "وأن على العباد حفظةً، يكتبون أعمالهم، كما قال ربنا تبارك وتعالى في كتابه[١] العزيز، ولا يسقط شيء من ذلك من علمه".[٢]

قوله: ‹‹وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه››.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٣]. شاع بين الناس أن ملك الموت اسمه (عزرائيل) ولم يثبت ذلك في حديث صحيح، وإنما ورد في الإسرائيليات كما قال الشيخ الألباني رحمه الله.[٤]

قوله: ‹‹وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ، وآمنوا به ثم الذين يلونهم››.

يشير إلى قوله ﷺ كما صح[٥] عن عمران بن الحصين رضي الله عنه وغيره: "خير أمتي[٦] قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". فلا أدري أذكر عمران بعد قرنه قرنين أم ثلاثة".

---

(١) يعني قوله: ((وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ...)).

(٢) كتاب الجامع لابن أبي زيد ص: ١١١.

(٣) السجدة: ١١.

(٤) في شرحه وتعليقه على العقيدة الطحاوية، الطبعة الأولى الشرعية، ١٤٢٢هـ، ص: ٨٤.

(٥) متفق عليه، البخاري في فضائل الصحابة، ومسلم رقم: (٢٥٣٣).

(٦) عند مسلم: خير الناس في بعض الروايات.

لقد نطق القرآن وصحت السنة بفضل القرن الذي عاش فيه رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1].

قال ابن أبي زيد في "كتاب الجامع": "وأن خير القرون قرن الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال النبي ﷺ".

فأصحاب الرسول ﷺ هم أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين وهم أفضل أتباع جميع الرسل والأنبياء.

قوله: ‹‹وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين››.

كما قال الشيخ فإن أفضل الصحابة هم الخلفاء الراشدون الأربعة، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ﷺ جميعاً وأن خلافتهم خلافة النبوة.

قال سَفينة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك لمن يشاء _أو ملكه من يشاء".[2]

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: (٤٦٤٧)، وقال: حسن صحيح.

قال ابن أبي زيد: "وأن أفضل الأئمة بعد نبينا أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. وقيل: ثم عثمان وعلي، رضي الله عنهم، ويكف عن التفضيل بينهما. وروي ذلك عن مالك، وقال: ما أدركت أحداً اقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه، ويرى الكف عنهما.

وروي عنه القول وعن سفيان[١] وغيره، وهو قول أهل الحديث: ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر من المهاجرين، ثم من الأنصار، ومن جميع أصحابه على قدر الهجرة، والسابقة، والفضيلة.

وكل من صحبه ولو ساعة، أو رآه ولو مرة فهو بذلك أفضل من أفضل التابعين".[٢]

قال الإمام القحطاني الأندلسي المالكي في نونيته[٣]:-

قل إن خيرَ الأنبياءِ محمد ... وأجلَّ من يمشي على الكثبان
وأجل صحب الرسل صحب محمّد ... وكذلك أفضل صحبه العمران
رجلان قد خُلِقا لنصرِ محمّدٍ ... بدمي ونفسي ذانك الرجلان
فهما اللذان تظاهرا لنبينا ... في نصرِهِ وهما له صهران
بنتاهما أسنى نساء نبينا ... وهما له بالوحي صاحبتان
أبَواهما أسنى صحابة أحمد ... يا حبّذا الأبوان والبنتان
وهما وزيراه اللذان هما هما ... لفضائل الأعمال مستبقان
وهما لأحمد ناظراه وسمعُه ... وبقربه في القبر مضطجعان
كانا على الإسلامِ أشفق أهله ... وهما لدين محمّد جبلان

(١) ابن عيينة.
(٢) كتاب الجامع، ص: ١١٥.
(٣) ص: ٢١-٢٢.

أصـــفاهما أقواهمـــا أخشـــاهما أتقاهمـــا في الســـرّ والإعـــلان
أســـناهما أزكاهمـــا أعلاهمـــا أوفاهمـــا في الـــوزن والرجحـــان
صدّيق أحمَدَ صاحب الغـــار الـــذي هـــو في المغـــارة والـــنبيُّ اثنـــان
أعني أبـــا بكـــر الـــذي لم يختلـــف من شـــرعنا في فضـــله رجـــلان
هو شيخ أصحاب الـــنبي وخيرُهـــم وإمـــامُهم حقّـــاً بـــلا بطـــلان
وأبـــو المطهَّـــرة الـــتي تنـــزيهها قد جاءنـــا في النـــور والفرقـــان
أَكرِم بعائشة الرضـــى مـــن حـــرة بكـــر مطهَّـــرة الإزار حصـــان
هي زوج خـــير الأنبيـــاء وبكـــره وعروســـه مـــن جملـــة النســـوان
هي عرسُه هي أنســـه هـــي إلفُـــه هي حبـــه صـــدقاً بـــلا ادهـــان
أو لـــيس والـــدها يصـــافي بعلَهـــا وهمـــا بـــروح الله مؤتلفـــان
لَمَّا قضـــى صـــدّيق أحمـــد نحبَـــه دفـــع الخلافـــة للإمـــام الثـــاني
أعني بـــه الفـــاروق فـــرّق عنـــوة بالسيف بـــين الكفـــر والإيمـــان
هو أظهـــر الإســـلام بعـــد خفائـــه ومحا الظـــلام وبـــاح بالكتمـــان
ومضى وخلّى الأمر شورى بينـــهم في الأمر فاجتمعوا علـــى عثمـــانِ
من كـــان يســـهر ليلـــة في ركعـــة وتـــراً فيُكمـــلُ ختمـــةَ القـــرآن
ولي الخلافـــة صـــهر أحمـــد بعـــده أعـــني علـــيَّ العـــالِمَ الربـــانيّ
زوجَ البتولِ أخا الرســـولِ وركنُـــه ليثَ الحـــروبِ مُنـــازِل الأقـــران

قوله: ‹‹وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكـــر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهـــم المخـــارج، ويظن بهم أحسن المذاهب››.

يقرر الشيخ مذهب أهل السنة في الثناء عل الصحابة، والكف عما شجر بينهم من خلاف. فينبغي أن لا يذكروا إلا بخير.

وينبغي كذلك على المسلمين عدم الخوض فيما شجر بينهم اقتداء وتأسياً بابن عمر الذي كان شاهداً لتلك الأحداث ومعتزلاً لها حيث كان يقول إذا سئل عنها: "تلك فتنة طهر الله منها أيدينا وسيوفنا فلا نريد أن نخوض فيها بألسنتنا".

وكذلك بعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي ــرحمه اللهــ الذي كان إذا سئل عنها تلا قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1]. وليس معنى ذلك أن الصحابة معصومون عن الخطأ والزلل بل تجوز عليهم الكبائر والصغائر مع ندرة وقوع ذلك منهم.

قال ابن أبي زيد في "كتاب الجامع"[2]: "والكف عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ إلا بخير ما يذكرون به، وأنهم أحق الناس أن تنشر محاسنهم، ويلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب.

---

(١) البقرة: ١٣٤.

(٢) ص: ١١٥-١١٦.

قال رسول الله ﷺ: "لا تؤذوني في أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".(١)

وقال عليه السلام: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا".(٢)

قال أهل العلم: لا يذكرون إلا بأحسن ذكر".

كان عدد الصحابة عندما هاجت الفتنة حوالي عشرة آلاف، وعدد الذين وقفوا مع علي، ومعاوية، وعائشة، وطلحة، والزبير، لا يزيد على الثلاثين واعتزلها جل الصحابة.

لم يكن أحد منهم يريد القتال لا علي، ولا معاوية، ولا أهل الجمل، لكن دعاة الفتنة هم الذين تسببوا في القتال.

وعلي رضي الله عنه لم يكن منشرحاً لا لقتال أهل الجمل ولا لأهل الشام كانشراحه لقتال الخوارج في موقعة النهروان.

أهل السنة سلفاً وخلفاً يدينون الله أن الحق كان مع علي وأن معاوية وطلحة والزبير كانوا متأولين مطالبين بالقصاص من قتلة عثمان وقد طلب منهم علي أن يدخلوا في بيعته أولاً، ثم يتعاون الجميع في القصاص من قتلة عثمان.

لم يكن في مقدور عليّ رضي الله عنه ولا غيره أن يقتص من قتلة عثمان في ذلك الوقت.

---

(١) صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم: ٤٦٥٨، والصحيحة للألباني.

(٢) حديث حسن، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٤٢/١: روي من حديث ابن مسعود، وثوبان، وابن عمر، و طاوس مرسلا، و كلها ضعيفة الأسانيد، و لكن بعضها يشد بعضا". والحديث أخرجه الطبراني في "الكبير" (٢ / ٧٨ / ٢) و أبو نُعيم في "الحلية" (١٠٨/٤) والله أعلم.

ولم يكن خروج عائشة رضي الله عنها لطلب رئاسة ولا لقتال وإنما خرجت لأن مروان بن الحكم أشار عليها أن تخرج لعل الناس عندما يرونها أن يصطلحوا كما بين ذلك الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه القيم "العواصم من القواصم".

الأخبار التي سجلها المقرضون في الفتنة جلها كذب، وبعضها زيد فيه ونقص، والقليل النادر منها الصحابة فيه مجتهدون، فمن أصاب الحق منهم فله أجران ومن أخطأه فله أجر، وخطؤه النادر مغمور في حسناته الكثيرة، وفي سابقته للإسلام، وجهاده أعداء الدين.

الخوض في الفتنة التي جرت بين الصحابة لا فائدة منه، ولا طائل وراءه لسببين اثنين:

أولهما: أننا غير مسؤولين عما حدث بينهم ولا مؤاخذون بما اقترفوا.

ثانيهما: هذه المسألة تاريخية، والذين ينتقدون ويتحدّث عنهم جميعاً قد حطوا رحالهم في أعلى الجنان، ونزع الله ما في قلوبهم من الغل والأضغان، وقد أمر الله التابعين لهم بإحسان بسؤال المغفرة لهم والرضوان: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠** ﴾[1].

لقد استنبط مالك من هذه الآية أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في الفيء نصيب.

---

(١) الحشر: ١٠.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "وما أحسن ما استنبط الإمام مالك ــرحمه اللهــ من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما ما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ . . .﴾ الآية.

ثم روى عن مسروق عن عائشة قالت: "أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم، سمعت نبيكم يقول: "لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها". رواه البغوي".[1]

قال الإمام القحطاني المالكي في نونيته[2]:-

إن الروافض شر من وطئ الحصى	**من كل إنس ناطق أو جان**
مدحوا النبي وخونوا أصحابه	**ورموهمُ بالظلم والعدوان**
حبّوا قرابتَه وسبّوا صحبَه	**جدلان عند الله منتقضان**
فكأنما آل النبي وصحبُه	**روحٌ يضم جميعها جسدان**
فئتان عقدُهما شريعة أحمدٍ	**بأبي وأمّي ذانك الفئتان**
فئتان سالكتان في سبل الهدى	**وهما بدين الله قائمتان**

إلى أن قال:-

واحفظ لأهل البيت واجب حقهم	**واعرف علياً أيما عرفان**
لا تنتقصه ولا تزد في قدره	**فعليه تصلى النار طائفتان**
إحداهما لا ترتضيه خليفة	**وتنصّه الأخرى إلهاً ثاني**
والعن زنادقة الجهالة إنهم	**أعناقهم غلّت إلى الأذقان**

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤، توزيع المكتبة التجارية، مكة، ج٤/٥٢٩-٥٣٠.

(٢) ص: ٢١ وص: ٢٤.

جحدوا الشـــرائع والنبـــوة واقتـــدوا بفســـاد ملـــة صـــاحب الإيـــوان
لا تـــركنن إلى الـــروافض إنهـــم شتموا الصـــحابة دون مـــا برهـــان
لعنوا كمـــا بغضـــوا صـــحابة أحمـــد ووادهم فـــرض علـــى الإنســـان
حـــب الصـــحابة والقرابـــة ســـنة ألقـــى بهـــا ربي إذا أحيـــاني

سب الصحابة رضوان الله عليهم منه ما هو كفر, ومنه ما هو كبيرة من الكبائر العظام:

فالكفر الذي يوجب القتل نحو:

١. تضليل وتكفير كل الصحابة.
٢. تضليل وتكفير الخلفاء الأربعة أوبعضهم.
٣. رمي عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه.

والكبيرة التي توجب التأديب الشديد، والتعزير، والهجر نحـــو انتقـــاص بعضهم وشتمه بـــ:

١. البخل، والجبن وما شاكل ذلك.
٢. أو تفضيل خيار التابعين على أحد منهم.

سمع التابعي الكبير يزيد بن الأسود النخعي أحداً يفضل عمر بن عبد العزيز ــرحمه اللهــ على معاوية ﷺ فغضب عليه وقال له: "لمداد[1] في ثوب معاوية خير من ملء الأرض من عمر بن عبد العزيز".

(١) عندما كان يكتب الوحي.

وفي رواية: "لغبار[١] في أنف معاوية خير من ملء الأرض من عمر بن عبد العزيز".

وذلك بسبب الصحبة.

وقال هارون الحمال: "سمعت أحمد بن حنبل، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله! إن هاهنا رجل يفضل عمر بن عبد العزيز على معاوية بن أبي سفيان، فقال أحمد: لا تجالسه، ولا تؤاكله، ولا تشاربه، وإذا مرض فلا تعده".[٢]

قوله: ‹‹والطاعة لأئمة المسلمين، من ولاة أمورهم وعلمائهم››.

يشير الشيخ بهذا إلى قاعدة أساسية من قواعد أهل السنة والجماعة وهي طاعة ولاة الأمر من العلماء والحكام الذين يأتمرون بأمر العلماء.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[٣].

وطاعة ولاة الأمر من العلماء والحكام، وكل من له طاعة عليك من الوالدين، والزوج وغيرهما، لا تكون إلا في المعروف.

عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".[٤]

---

(١) عندما كان مع رسول الله ﷺ.

(٢) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، تحقيق محمد حامد الفقي، ج١/١٣٣.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) متفق عليه، مسلم رقم: (١٨٣٩).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك، وأثرة[١] عليك"[٢].

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله قال: "من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية".[٣]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني".[٤]

وعن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين، في جثمان إنسان"، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: "تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع".[٥]

الإسلام يقوم على مبدأ الحقوق والواجبات فكما أن للحكام حقوقاً فعليهم واجبات نحو الرعية. من أخطر وأهم واجبات الحاكم حماية الدين ورعاية مصالح العباد الدنيوية نحو:

١. أن يحكم فيهم شرع الله ﷻ.
٢. أن يحمي حوزة الدين.
٣. أن يؤمن البلاد من غزو الكفار، والعباد في أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

---

(١) أي وإن آثروا أنفسهم بحظوظ الدنيا.
(٢) مسلم رقم: (١٨٣٦).
(٣) متفق عليه، مسلم: (١٨٤٩).
(٤) متفق عليه، مسلم: (١٨٣٥).
(٥) صحيح مسلم رقم (١٨٤٧).

٤. أن يعدل بينهم في القضية ويحكم بالسوية.

٥. ألا يتخوض في مال الله بغير حق.

٦. أن ينصح لهم ولا يغشهم.

٧. أن يتفقد عماله وأعوانه ويراقبهم.

أما حقه على الرعية:-

١. أن يطيعوه في المعروف.

٢. وأن ينصحوه، "الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".[1] وقال أبو بكر ﷺ: "لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها". وقال عمر: "رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي".

٣. أن يعينوه على القيام بواجبه.

٤. أن لا يخرجوا عليه إلا إذا رأوا كفراً بواحاً وحتى في هذه الحال لا بد من مراعاة المصلحة، فإن غلب على الظن الفساد فلا يحل الخروج والحال هكذا. رحم الله ابن عمر ﷺ عندما كان مروان بن الحكم يهيئ لبيعة يزيد بن معاوية قائلاً: ليس هناك من هو أصلح منه. قال ابن عمر: فككت حبوتي وأردت أن أقول له: من قاتلك[2] وأباك على الإسلام أولى، فتذكرت الفتنة فقعدت.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أن الدين النصيحة، رقم: (٨٢).

(٢) وكان مروان وأبوه من مسلمة الفتح.

وعلى الخلف أن يستصحبوا ما دهى الأمة باستشهاد الحسين وآل بيته، وما أصاب المسلمين من جراء الخروج المسلح في الجمل وصفين والحرة، وفي محاصرة الحجاج لابن الزبير في الحرم، وفي المعارك التي دارت بين ابن الأشعث ومن خرج معه وبين الحجاج وغيرها كثير من الدماء الطاهرة التي أريقت، والنفوس الزكية التي ذهبت، والخراب والدمار الذي أصاب الديار والأموال، والفزع الذي حل في تلك الأماكن، والأحقاد والضغائن التي خلفتها تلك المواقع، فالعاقل من اتعظ بغيره واستفاد من عبر السالفين.

البعض يخلط بين النصيحة وبين الخروج المسلح، وبينهما ما بينهما، فالنصحية مأمور بها محضوض عليها، والخروج منهي عنه ومتوعد عليه.

فقوام ديننا النصيحة، وفساد حالنا في السكوت عن الباطل حتى تجرأ البعض على من ينصح من غير تشهير ولا إعلام ووصفوهم بالخوارج، وهذا من الظلم البين، والتعدي الواضح على إخوة العقيدة.

الأصل في النصيحة أن تكون سراً وأن تكون في المخالفات الشرعية المجمع عليها بين أهل الإسلام، ولكن إن لم تُجدِ المناصحة واستفحل الأمر، وخشي أن يعم البلاء ويعظم فما الذي يمنع من الجهر بها؟!

لقد جهر بعض الصحابة والسلف الصالح بأمور لا ترقى ولا تقارب ما عمت به البلوى في عصرنا هذا فقبلت منهم وشكروا عليها.

ورحم الله القائل وكأنه عمرو بن العاص: "إمام عادل خير من مطر وابل، وإمام غشوم ظلوم خير من فتنة تدوم، ولما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن".

فلا بد للأمة من إمام مهما كان عدلاً أم جائراً فما لا يدرك كله لا يترك جله.

قال كعب الأحبار: "مثل الإسلام، والسلطان، والناس، مثل الفسطاط والعمود والأوتاد، فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس، ولا يصلح بعضها إلا ببعض".

وقد صاغ ذلك الأفوه شعراً:-

لا يصلح الناس فوضى لا سراة[١] لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبنى إلا له عمد ولا عمادَ إذا لم ترس أوتاد
وإن تجمع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وقبل هذا وذاك علينا أن نستصحب قول رسولنا الناصح الأمين في النهي عن نزع يد الطاعة والخروج والقتال للحكام وإن جاروا وظلموا[٢]:

• عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية[٣]، يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي، يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاشى[٤] من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه".

---

(١) السادة والقادة.

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة، ج١٣٧٦/٣, والصفحات التي تليها، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) نحو القتال عصبية وحمية جاهلية.

(٤) لا يكترث.

• جاء ابن عمر ﷺ إلى عبد الله بن مطيع[١]، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً. سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من خلع يداً عن طاعة، لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

وعن عوف بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون[٢] عليهم ويصلون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قال: قلنا: يا رسول الله! أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: "لا ما أقاموا فيكم الصلاة. ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتيه من معصية الله، ولا ينـــزعن يداً من طاعة".

قال ابن أبي زيد: "والسمع والطاعة لأئمة المسلمين وكل من ولي أمر المسلمين عن رضا، وعن غلبة[٣]، واشتدت وطأته، من بر أو فاجر، فلا يخرج عليه، جار أو عدل ويغزو معه العدو، ويحج البيت، ويدفع الصدقات إليهم مجزية إذا طلبوها، وتصلى خلفهم الجمع والعيدان".[٤]

---

(١) وكان قد خرج على بيعة يزيد بن معاوية وعبأ القرشيين للقتال في موقعة الحرة بالمدينة.

(٢) المراد بالصلاة هنا الدعاء.

(٣) البعض يتوهم أن الحاكم إن لم يأت بالنظام الديمقراطي اللاديني، لا يعتبر حاكماً شرعياً!! فالعبرة في الإسلام بتحكيم الشرع وإقامة العدل.

(٤) كتاب الجامع، ص: ١١٦.

قوله: ‹‹وترك المراء والجدل في الدين››.

يشير الشيخ إلى ما هو مقرر عند أهل السنة أن الجدل والمراء والخصومات لا تأتي بخير قط.

قال ﷺ: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [١]". [٢]

وقال: كما روى عنه أبو أمامة: "أنا زعيم ببيت في ربض[٣] الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه". [٤]

لهذا كره السلف الصالح الجدل والمراء والخصومات في أمور الدين كلها بصفة عامة، وفي:

١. القرآن.

٢. والقدر.

٣. النجوم.

٤. التكفير والتضليل والتفسيق.

٥. وكل ما لا طائل وراءه بصفة خاصة.

---

(١) الزخرف: ٥٨

(٢) رواه الترمذي رقم: (٣٢٥٣)، وقال: حسن صحيح، عن أبي أمامة، وابن ماجة رقم: (٤٨) وأحمد ج٥/٢٥٢.

(٣) طرف.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح، رقم: (٤٨٠٠)،كما قال النووي في رياض الصالحين، ص: ٢٣٣. وقال محققاه: سنده قوي.

قال ابن أبي زيد في "كتاب الجامع"[1]: قال مالك: قال عمر بن عبد العزيز:- قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً".

قال مالك: قد نهجت السبل واستبان الأمر.

قال ذلك الرجل ـأي عمر بن عبد العزيزـ: لأنا عليكم من العمد، أخوف مني عليكم من الخطأ.

قال مالك: وإنما فسدت الأشياء حين تعدِّيَ بها منازلها.

وقال مالك: "وليس هذا الجدل من الدين في شيء".

وقال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل، والدين حدوده بينة، ليس بأمر توقف فيه النظر".

قال عمر بن عبد العزيز: "لست بمبتدع ولكني متبع".

قال مالك: "وكان يقال لا تمكن زائغ القلب من أذنيك؛ فإنك ما تدري ما يعلمك من ذلك. ولقد سمع رجل من الأنصار من أهل المدينة شيئاً من بعض أهل القدر، فعلق قلبه، فكان يأتي إخوانه الذين يستنصحهم، فإذا نهوه قال: فكيف بما علق قلبي؟ ولو علمت أن الله رضي أن ألقي بنفسي من فوق هذه المنارة فعلت".

وكان مالك ـرحمه اللهـ من أبغض الخلق للجدل والمراء وكذلك سائر الأئمة المقتدى بهم، كأيوب السختياني وابن سيرين والثوري والشافعي وأحمد, وغيرهم.

---

(١) ص: ١١٩-١٢٠.

نقل ابن مفلح ــرحمه اللهــ في كتابه "الآداب الشرعية"[١] عدداً من الآثار عن أئمة الدين المقتدى بهم، تنهى عن المراء والجدل والخصومات وعن الابتداع، وإليك طرفاً منها:

قال الزعفراني: سمعت الشافعي ﷺ يقول: ما ناظرت أهل الكلام إلا مرة، وأنا أستغفر الله ﷻ من ذلك.

وقال الربيع: سمعت الشافعي ﷺ يقول: لأن يبتلي الله ﷻ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك به خير له من الأهواء.

وقال ابن عبد الحكم عنه: "لو علم الناس ما في الأهواء من الكلام لفروا منه كما يفرون من الأسد".

وقال أيضاً: "ما أحد ارتدى الكلام فأفلح".

وقال عبدوس بن مالك العطار: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ﷺ يقول: "أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين".

إلى أن قال: "لا تخاصم أحداً ولا تناظره[٢]، ولا تتعلم الجدال فإن الكلام في القدر، والرؤية، والقرآن وغيرها من السنن مكروه منهي عنه لا يكون صاحبه إن أصاب بكلامه السنة، من أهل السنة حتى يدع الجدال".

---

(١) ج١/٢٢٠-٢٢٢.

(٢) سداً للذريعة.

وقال العباس بن غالب الوراق: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله! أكون في المجلس ليس فيه من يعرف السنة غيري، فيتكلم متكلم مبتدع، أرد عليه؟ قال: لا تنصب نفسك لهذا، أخبر بالسنة ولا تخاصم، فأعدت عليه القول، فقال: ما أراك إلا مخاصماً.

وذكر أبو المظفر السمعاني في كتابه "الانتصار لأهل الحديث" قيل للإمام مالك بن أنس ــرحمه اللهــ: ما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته، وعلمه، وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون".

وقال الأوزاعي: "عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك القول، فليحذر كل مسؤول ومناظر من الدخول فيما ينكره عليه غيره. وليجتهد في اتباع السنة واجتناب المحدثات كما مر.

وقال الأوزاعي كذلك: "إذا أراد الله ﷻ بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم من العمل".

وقال الشافعي ﷺ: "المراء في الدين يقسي القلب ويورث الضغائن".

وقال رجل[1] لأيوب السختياني: "أقرأ عليك شيئاً من القرآن. قال: لا تقرأ. قال: اسمع مني حديثاً. فقال: لا. قال: اسمع مني كلمة. قال: ولا نصف كلمة، إما أن تقوم وإما أن أقوم".

(١) من أهل البدع، معتزلي.

المناظرة بين العلماء:

مناظرة أهل العلم الراسخين لأهل الأهواء والكفار جائزة، ومشروعة إذا توفرت شروطها من الرجوع إلى أمور متفق عليها أو إلى النظر السليم مع وجود حَكَم يفصل بين المتناظرين.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [1]، وقد جادل علي، وابن عباس، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز الخوارج، وناظروهم وغلبوهم. وكذلك ناظر الإمام أحمد، وعبد العزيز الكناني أئمة المعتزلة في فتنة خلق القرآن بشر المريسي وابن ابي دؤاد عليهما من الله ما يستحقان، ولا يزال أهل العلم يردون على الزنادقة وأهل الأهواء والمبتدعة.

لذلك مدحهم الإمام أحمد في مقدمة[2] كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية: "... الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم.

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) انظر: "إعلام الموقعين"، لابن القيم، ج١/٩.

ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلينن وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في كتاب الله، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلين".

بل الاشتغال بمناظرة ومجادلة أهل الأهواء والرد عليهم بالبنان واللسان من أجل القربات بعد الفرائض لمن كان أهلاً لها؛ ولهذا كان شعر حسان ﷺ في الذب عن الإسلام وهجاء أئمة الشرك أشد عليهم من وقع الحسام والقتال.

لو لم يكن في مناظرة أهل الأهواء والرد عليهم من المتمكنين من ذلك إلا النهي والتحذير منهم, وتبصير من أراد الله له الهداية لكفى، أما المبتدع فمن العسير رجوعه عن بدعته إلا من رحم الله فتوبة أهل البدع عزيزة المثال، قليلة الوقوع.

قوله: ‹‹وترك كل ما أحدثه المحدثون››.

يشير الشيخ إلى خطورة البدع والحوادث ويحذر من ذلك شان كل علماء السلف الفالحين.

فالابتداع في دين الله ما لم ينـــزل به سلطاناً خطره عظيم وضرره جسيم.

لقد حذر رسولنا الكريم الناصح الأمين أمته من الابتداع فقال فيما صح عنه من حديث عائشة: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، متفق عليه.

ولمسلم[١]: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"، أي ما أحدثه المحدث وما قلده فيه المقلد مردود عليه لا يقبل منهما صرف ولا عدل، أي لا فرض ولا سنة.

وكان ﷺ إذا خطب غالباً ما يفتتح خطبته بـــ "أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"، الحديث.[٢]

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت[٣] منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ[٤]، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة".[٥]

وقال ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى". قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".[٦]

---

(١) رقم: (١٧١٨).

(٢) مسلم، رقم: (٨٦٧).

(٣) خافت.

(٤) الأنياب، وقيل: الأضراس.

(٥) أبو داود رقم: (٤٦٠٧)، والترمذي رقم: (٢٦٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) البخاري.

وقال ﷺ: "من سن في الإسلام سنة حسنة[١] فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".[٢]

ومعلوم من دين الله ضرورة أنه ليس هناك بدعة حسنة بحكم رسول الله ﷺ: "كل بدعة ضلالة". وكل الشبه التي يثيرها مقسمو البدع إلى حسنة وسيئة داحضة ومردودة كما بين العلماء ذلك، حيث لا يوجد ضابط للتحسين والتقبيح العقليين.

فالسعيد من وسعه ما وسع رسول الله وصالحي المؤمنين، والشقي من لم يسعه ذلك.

لقد أمرنا بهجر البدع وأهلها، فهجرهم من أجل القربات ولا يقدر على ذلك إلا القليل سيما في هذا العصر، وإذا كان الإمام ابن عقيل الحنبلي عاب أهل عصره في تقصيرهم في هجر أهل البدع فكيف بنا نحن؟

قال ابن عقيل في كتابه "الفنون"[٣]: الصحابة ﷺ آثروا فراق نفوسهم لأجل مخالفتها للخالق ﷻ، فهذا يقول: زنيت فطهرني، ونحن لا نسخو أن نقاطع أحداً فيه لمكان المخالفة".

---

(١) أي من أحيى سنة أميتت.

(٢) مسلم، رقم: (١٠١٧).

(٣) وهو كتاب ضخم، قيل: ٨٠٠ مجلد، وقيل: ٤٠٠، وقيل: ٢٥٠، وهو من التراث الضائع، وقد رأى منه ابن الجوزي ١٥٠ مجلداً لخصها في عشرة مجلدات – انظر "ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب الحنبلي و"صيد الخاطر" لابن الجوزي.

وقال ابن مفلح نقلاً عن أحمد: "ويجب هجر من كفر، وفسق ببدعة، أودعا إلى بدعة مضلة أومفسقة على من عجز عن الرد عليه، أوخاف الاغترار به، والتأذي دون غيره، وقيل: يجب هجره مطلقاً وهو ظاهر كلام الإمام أحمد السابق، وقطع ابن عقيل به في "معتقده" قال: ليكون ذلك كسراً له، واستصلاحاً واستدل عليه".

وقال أيضاً: إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة عاش ابن الراوندي[1] والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون، هذا يقول: حديث خرافة، والمعري يقول:

تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا: صدقنا فقلنا: نعم

يعني بالباطل: كتاب الله ﷻ، وعاشوا سنين، وعظمت قبورهم، واشتريت تصانيفهم، وهذا يدل على برودة الدين في القلب.

وهذا المعنى قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى".[2]

وقال ابن أبي زيد ــرحمه اللهــ: "والتسليم للسنن لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه، أو في تأويله.

---

(١) وهو من أئمة الزنادقة.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح، جـــ١/٢٥٣.

قال مالك: قال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سناً الأخذ بها تصديقاً بكتاب الله، واستكمالاً لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها مهتدي، ومن استنصر بها منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً".

قال مالك: أعجبني عزم عمر في ذلك".[١]

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[٢]. وقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾[٣].

قال ابن مسعود ﷺ: "من كان مستناً، فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً[٤]، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في أقوالهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم؛ فإنهم كانوا على الصراط المستقيم".

---

(١) كتاب الجامع لابن أبي زيد، ص: ١١٨.

(٢) الأحزاب: ٢١

(٣) الممتحنة: ٤

(٤) وفي رواية: تكلماً.

قال رحمه الله في خاتمة هذه العقيدة الموجزة المفيدة: «وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً». انتهى.

فالحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان دائماً أبداً.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وشرفنا بالانتساب إلى ملة خير ولد عدنان، ونسأله أن يشرح صدورنا حتى نستضي بنور الكتاب والسنة ونقتفي أثر من سلف ولا نحيد عن ذلك قيد أنملة.

لقد وفق من شبه السنة بسفينة نوح عليه السلام فمن ركب فيها نجا، ومن لم يركب هلك مع الهالكين.

أما بعد..

فلقد كرر ابن أبي زيد رحمه الله عقيدته هذه في "كتاب الجامع" في الباب الأول منه، باب "ذكر السنن التي خلافها البدع وذكر الاقتداء والاتباع، وشيء من فضل الصحابة، ومجانبة أهل البدع"[1] بألفاظها تقريبا مع تغيير طفيف مما يدل على أنها هي العقيدة التي كان يدين الله سبحانه وتعالى بها.

وقد أكد يقيننا وزادنا على ما نحن عليه من أن هذه هي عقيدة إمامه مالك والأئمة المقتدى بهم عامة في الفقه والحديث، فقال: "وكل ما قدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على ما بيناه، وكله قول مالك، فمنه منصوص من قوله، ومنه معلوم من مذهبه".[2]

---

(١) في أوله من ص: ١٠٥-١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ١١٧.

مما يحتم على أتباع المذاهب السنية الأربعة وغيرهم الرجوع إلى قول أئمتهم وأن يقتدوا بهم في الأمر الأهم، والفقه الأكبر، في العقيدة قبل اقتدائهم بهم في الفروع، بل في بعض الأحيان يقلدونهم في مسائل يعوز أحدهم فيها الدليل مع تحذير الأئمة الأربعة وغيرهم عن تقليدهم وحثهم على الاتباع.

ومن العجيب الغريب أن يرجع الإمام أبو الحسن الأشعري عن العقيدة الأشعرية، ويعلن ذلك، ويتبرأ منها، ويؤلف رسالة[١] تدل على ذلك، إلى مذهب أهل السنة والجماعة ويصر المقلدون على بقائهم على ما كان عليه.

فالتقليد مع بيان الحق ووجود الدليل، وتنبيه المقلد جريمة لا تغتفر، وذنب لا يعذر صاحبه.

رحم الله الإمام الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) صاحب العقيدة الطحاوية حين قال ذاماً التقليد ومبكتاً على المقلدين: "كان أبو عبيد بن حربويه القاضي يذاكرني المسائل[٢], فأجبته يوماً في مسألة، فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة؟! فقلت له: أيها القاضي، أوكل ما قاله أبو حنيفة أقول به؟! فقال: ما ظننتك إلا مقلداً؟! فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي؟! فقال لي: أو غبي.

قال: فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلاً وحفظها الناس".[٣]

وأخيراً نُذَكِّر بما قاله ملك الإمام: "ما لم يكن في ذاك اليوم ديناً فلن يكون اليوم ديناً"، و"لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

---

(١) الإبانة في أصول الديانة، وهي مطبوعة محققة.

(٢) في الفقه.

(٣) العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق الألباني، ص: ٣-٤.

اللهم ردنا إليك وجميع إخواننا المسلمين حتى يكون هوانا تبعاً لما جاء به نبيك الكريم، وحتى نكون على ما كان عليه ﷺ وصحبه والتابعون لهم، إنك ولي ذلك والقادر عليه، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا ورسولنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكرك الذاكرون الأخيار، وصلِّ عليه ما تعاقب الليل والنهار، وصلِّ عليه وعلى المهاجرين والأنصار.

فرغ من هذا الشرح لليلتين بقيتا من
ذي الحجة عام ١٤٢٨هـ

الفهرس

المقدمة ١
تعريف بصاحب هذه العقيدة..... ٣
باب ما تنطق به الألسن، وتعتقده الأفئدة..... ٤
مفهوم الإيمان ٥
تفسير الشهادة وأنواع التوحيد ٥
قوله: ‹‹ولا شبيه له ولا نظير›› ٩
قوله: ‹‹ولا ولد له، ولا والد ولا صاحبة له›› ٩
قوله: ‹‹ولا شَرِيك›› ١١
قوله: ‹‹ليسَ لأوليتِهِ ابتداءٌ ولا لآخريّتِهِ انتهاءٌ›› ١١
قوله: ‹‹لا يبلغُ كنه صفتِه الواصفون›› ١٢
وقوله: ‹‹ولا يحيط بأمره المتفكرون›› ١٣
إثبات صفة العلم والكرسي ١٣
قوله: ‹‹العالم، الخبير، المدبر، القدير، السميع..›› ١٦
إثبات العرش والفوقية ١٧
إثبات القرب والمعية ٢٥
أنواع المعية ٢٦
إثبات الاستواء..... ٢٧
إثبات صفة الكلام ٢٧
القرآن كلام الله غير مخلوق ٣٠

الإيمان بالقدر ٣٤
تلخيص الإيمان بقضاء الله وقدره في نقاط مجملة ٣٧
قوله: ‹‹يضل من يشاء فيخذله بعدله..›› ٣٩
مذاهب الناس في أفعال العباد الاختيارية..... ٤٢
الأدلة العقلية على بطلان مذهب القدرية..... ٤٤
الإيمان بالرسل ٤٦
قوله: ‹‹ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد ﷺ..›› ٤٧
الإيمان بالساعة، والبعث، والنشور..... ٥٠
قوله: ‹‹وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات..›› ٥٣
مرتكب الكبيرة صائر إلى مشيئة الله..... ٥٥
الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان ٥٦
مجيء الله يوم القيامة ٥٨
إثبات الميزان وكتب الأعمال..... ٥٩
الإيمان بالصراط ٦٢
الإيمان بحوض الرسول ﷺ..... ٦٥
مفهوم الإيمان وأنه قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح..... ٧٠
قوله: ‹‹وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة››. ٧٥
قوله: ‹‹وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون›› ٨٢
إثبات نعيم القبر وعذابه..... ٨٥
الأدلة على عذاب القبر من القرآن ٨٥
الإيمان بالحفظة الكاتبين..... ٨٩

الإيمان بملك الموت ٩٠
قوله: ‹‹وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ ..›› ٩٠
أفضل الصحابة الخلفاء الأربعة على الترتيب ٩١
الصحابة لا يذكرون إلا بخير والكف عما شجر بينهم..... ٩٤
الطاعة لأئمة المسلمين وولاة أمرهم..... ٩٩
ترك المراء والجدل في الدين..... ١٠٥
المناظرة بين العلماء..... ١٠٩
اجتناب البدع والمحدثات..... ١١٠
الخاتمة ١١٦
الفهرس ١١٩